مَدْخَل إِلَى التَّصَوُّف

مَعَ النُّصُوص

دكتور سمير عباس زهران

µ

يعد التصوف أهم تيار روحى غمر المسلمين فى ماضيهم ، كما أنه كان عظيم الأثر فى تشكيل القيم الأخلاقية لدى كثير من الفرق الإسلامية ، إضافة إلى أنه شكل أدبا له كيان قائم بذاته ، وكان لهذا الأدب مرموق من مترلته ، وعظيم من أهميته عند كثير من الشعوب الإسلامية .

كان التصوف سببا فى نشأة الأدب التركى فصيحه وشعبيه على سواء ، ولولاه ما انبثق هذا الأدب فى الوجود ، ولقد تأثر به الأدب التركى فى أعماقه وأبعاده ، منذ القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن العشرين ، فأَوْلى بنا أن نحيط بشئ من علمه . والتصوف فى ذاته كتيار روحى تقوم الصلة بينه وبين كثير من المعارف الإسلامية ، ولما كان الأدب الإسلامى فى لغاته المعروفة أدبا يقوم على أساس من أصول العلوم الإسلامية وفروعها ، كان التصوف موصول الصلة بهذه العلوم .

وحقيق بالذكر أن أيما دارس للآداب الإسلامية لاغنية له عن أن يكون على علم واسع بالتصوف ، أما دارس الأدب التركى خاصة فإنه لابد أن يكون على علم بمصطلحات الصوفية ، وفرقهم ، ورمزية التصوف ، مما لا غنية له عنه ، وإلا لما أدرك مما يقرأ من أدب الترك القديم شيئا .

كان للصوفية الفضل كما أسلفنا فى نشأة أدب خاص بهم ، وهو أدب يمتاز بخصائصه التى ينفرد بها ؛ ففيه الرمزية التى تعد من سمات الأدب العالى ، فى تقدير نقاد الأدب فى يومنا هذا ، كما أنه وثيق الصلة بالقرآن

والحديث ، فدارس التصوف أصلا دارس للقرآن ، والحديث ضمنا ، وحسبنا الإشارة إلى هذه الحقيقة ، لنعلم أن دراسة التصوف دراسة أساسية جوهرية للإسلام فى أخص خصائصه وأهم مصادره ، فالتصوف بهذه المثابة ، لابد وأن يكون مناط اهتمام كل دارس للأدب الإسلامى عامة ، والأدب االتركى خاصة ، فقد تأثر الشعر التركى بالتصوف أكثر من تأثر الشعر العربى ، ومن ثم نتمثل أثر التصوف فى الأدب الإسلامى ، وبالتالى ندرك أهميته لطلاب الأدب التركى .

د.سمير عباس زهران

أصل كلمة تصوف

اختلف اللغويون والدارسون فى الأصل اللغوى لكلمة تصوف اختلافا شديدا ، وتضاربت فيه أقوالهم قديما وحديثا ، وذهب المؤلفون فى تفسيرها مذاهب شتى ، وذكروا أن الكلمة مشتقة من الأصل " ص و ف " ، أو " ص ف " ، أو " ص ف ف " ، فنسبوها إلى الصوف ، وإلى الصفاء ، وإلى الصف ، وإلى الصُّفَّة (صُفَّة مسجد الرسول) ، وإلى رجل إسمه صوفة وإلى صوفة القفا ، وإلى الصوفانة وهى نبات ينبت فى الصحراء ، وإلى الكلمة اليونانية " صوفيا " .

ونرى من المفيد أن نتعقب تلك الأقوال لنرى أى الآراء أرجح فى تعريف الأصل القديم لكلمة " تصوف " :

١- والفرض الأول أن يكون الصوفى منسوبا إلى الصوف ، فمنهم من قال إن التصوف من لبس الصوف لأن الصوفية كانوا قوما من العُبَّاد والزُّهَّاد الذين قطعوا مابينهم وبين الدنيا من أسباب وقنعوا من الدنيا بأقل قليلها ، فكانوا يتقللون ويتقشفون فى المأكل والمشرب والملبس ، وما دام الملبس شعارا ، فكانوا يلبسون الصوف على أنه ملبس خشن ، ولذلك يسمون ثوبهم خِرْقَة أو مُرقَّعَة ، على أنها ثوب خشن ففى هذا رمزية لمذهبهم .

ويقول أبو نصر السراج الطوسى صاحب كتاب اللمع فى نسب الصوفية إلى ظاهر اللبسة ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ، وكان لباس الصوف غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لأنه أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد ، فالصوفية فى نظر السراج إنما سموا صوفية نسبة إلى اللباس الذى اتخذوا منه شعارا ورمزا ، وهو لباس الصوف ، أما أنهم نسبوا أنفسهم إلى ذلك الشعار الصوفى ، فذلك لأنه كان دائما دأب الأنبياء والصالحين كما تدل على ذلك الأخبار والروايات .

فقد أثر عن عيسى عليه السلام أنه لبس الصوف تعبدا ، وقال الحسن البصرى : " كان عيسى عليه السلام يلبس الصوف والشعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث أمسى " ، وقد جاء أن رسول الله S كان يركب الحمار ، ويلبس الصوف تواضعا وبعدا عن الرياء وزهدا فى الدنيا . وعنه S أنه قال يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام ، كان عليه جبة من صوف ، وسراويل من صوف .

وَرَد فى مرثية عمر بن الخطاب لرسول الله قوله : " ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك " وقد ورد فى الحلية لأبى نعيم أن النبى S واسى أهل الصُّفَّة و لم يكن عندهم غير جباب الصوف . وهذا الكلام صريح فى انه كان مفهوما أن الأنبياء والصالحين ، كانوا يؤثرون لبس الصوف .

وروى عن النبى S انه قال : " من لبس الصوف ، وأكل خبز الشعير ، وركب الأتان ، فليس فيه شئ من الكبر " وروى عنه أنه قال : " البسوا الصوف ، وشمروا ، وكلوا فى أنصاف البطون تدخلوا فى ملكوت السماء " ، فمن المحتمل أن يكون الصوفية لبسوا الصوف أول الأمر ، ليصلح

لهم الاقتداء بتواضع الرسول ، ولا سيما إذا تذكروا أن الرسول S أقبل على أهل الصفَّة فواساهم . و لم يكن عندهم غير جباب الصوف .

٢- والفرض الثانى نسبتها إلى الصفاء حيث قالت طائفة إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها . بمعنى أن هؤلاء القوم من الأتقياء كانت قلوبهم صافية من كل شائبة فسموا بالمتصوفة ، وقال بشر بن الحارث الملقب بالحافى ، الصوفى من صفا قلبه لله ، وقال بعضهم : الصوفى من صفت لله معاملته ، فصفت له من الله عز وجل كرامته . وليس هذا الفرض إلا حذلقة من بعض الصوفية .

٣- وقال قوم سموا صوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل لارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

٤- وقال قوم إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصُّفَّة الذين كانوا على عهد رسول الله S ، وهم جماعة من أهل التقوى من فقراء المهاجرين اخرجوا من ديارهم ، فآووا إلى صُفَّة مسجد الرسول بالمدينة ، واشتهروا بالتقوى ، ونسب إليهم التصوف ، وصفهم أبو هريرة فقال : " يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين " ، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق فيه فيوجد منه ريح الضأن إذا أصابه المطر .

وبالإضافة إلى بطلان نسبة الصوفى إلى أهل الصُفَّة على أساس لغوى فإن هذه النسبة غير مقبولة على أساس آخر ، وهو إن أهل الصُفَّة كانوا من أوائل المهاجرين حين لم يكن للتصوف وجود بمعناه الحقيقى .

٥- هذا وقد ذكرت نسب أخرى أبعد إحتمالا من التى ذكرناها ، وأقل أهمية كالقول أن الصوفى اسم منسوب إلى " صوفة " وهو الغوث بن

مُرّ ، كان هو وقومه من سدنة الكعبة القدماء ، فانتسب الصوفية إليه لمشابهتهم إياه ، فى الإنقطاع إلى الله .

٦- كما قيل إنه منسوب إلى صوفة القفا وهى الشعرات النابتة فى مؤخر الرأس .

٧- أو إنه منسوب إلى " الصوفانة " وهى نبت فى البادية كان هؤلاء الزهاد يقتاتون ويقتصرون عليه إيغالا منهم فى الزهد .

٨- وقد انفرد البيرونى من بين الكتاب العرب بقوله إن هناك صلة بين اسم الصوفى والكلمة اليونانية " صوفيا " وأخذ بهذا الرأى المستشرق النمساوى جوزيف فون هامر Joseph von Hammer الذى يقول إن كلمة صوفى مأخوذة من كلمة " جمنوسوفيست Gymnosophist " ومعناها الحكيم العارى ، وهو لفظ يونانى أطلقه اليونان على بعض حكماء الهنود القدماء الذين اشتهروا بحياة التأمل والعبادة ، وليس لفون هامر دليل سوى تقارب اللفظين فى النطق .

٩- وفى رأى بعضهم أن التصوف نسبة إلى الكلمة اليونانية " ثيو صوفيا Theosophia " بمعنى محبة الله ، وهو مذهب قديم كان أهله من الزُّهَّاد الذين يحبون الله .

أما الأرجح الذى اجتمع العلماء على ترجيحه هو إنها نسبة إلى لبس الصوف على أنه كان شعارا لهم ، يؤيد ذلك اللغة والعرف .

نشأة التصوف

اختلف العلماء كذلك فى نشأة التصوف ، وفى أصله ؛ فمن قائل إن أصله فى ديانات الفرس القديمة كالزردشتية[1] ، والمانوية[2] ، وحاولوا أن يوازنوا بين مظاهر لهذا فى التصوف الإسلامى ، وفى هاتين الديانتين ليتبينوا وجوه الشبه ، ويقيموا الدليل على أن التصوف مأخوذ من دين الفرس ، بل وعن اتجاهات الفرس الروحية ، لأن الفرس وهم من الآريين يختلف إتجاههم

---

(١) الزردشتية : تنسب هذه الديانة إلى زردشت أو زرتشت أو زرهشت ، وكلها أسماء ابن پور شسب بن پيتر اسب فريدون ، وينتهى نسبه إلى منوچهر بن ايرج امبراطور ايران . يعتقد الفرس القدماء أنه نبى عظيم وحكيم نزلت عليه رسالة من السماء . يقال انه ظهر فى مدينة اردبيل ، قدم إلى الرى ودخل على قصر شاهنشاه لهراسب ثم گشتاسب ، فقبل الملك دينه وعمل على نشره ، يقال إنه قبل ذهابه إلى گشتاسب رحل إلى خراسان ، وأقام معبدا للنار فى بلخ معروفا بـــ (نوبهار) ، واعتكف فيه فرآه گشتاسب فامتحنه فرأى منه معجزات عظيمة ، فآمن به ، فأرسل اسفنديار لنشر مبادئه وبناء معابد للنار . له كتاب الزند ، وهو يحتوى على واحد وعشرين قسما ، ويوجد شرح وترجمة للزند ويسمى " أوستا أو ابستا أو استا" ، وهناك من يقول ان اوستا المتن وزند شرحه ، ونظرا إلى أن زردشت كان يمجد العناصر والكواكب والنار ، ويبنى معابد لها . قال عنه عوام الناس إنه عابد النار ، واعتبروا النار قبلة زردشت .

(٢) المانوية : تنسب هذه الديانة إلى مانى ، وهو رسام ظهر فى زمان اردشير وبعضهم يقول بل فى زمن الملك بهرام ، ظهر بعد عيسى عليه السلام ، وقد قتله بهرام بن هرمز ، اسم كتابه " ارژنگ " وعقائده مزيج من عقائد الزردشتيين واليهود والمسيحيين . يقال إن أمه من نسل الملوك الاشكانيين ، وأباه من رجالات همدان هاجر إلى بابل وولد مانى فى تلك البلاد عام ٢١٦ م ، وادعى النبوة بعد أن أطلع على الأديان الموجودة .ومن أقواله : " أرسلنى الله نبيا من بابل حتى تصل دعوتى العالم أجمع " .

الفكرى والروحى عن العرب الساميين ، فالفرس يميلون إلى التجربة ، وإلى المعانى المجردة ، وإلى الخيال ، أما العرب فعقليتهم تشكيلية لا تجريدية ، وهم يميلون إلى الواقع ، ومنهم من حاولوا أن يقيموا الدليل على وجود وجوه للشبه بين ما فى دين الفرس والتصوف من معانٍ مجردة ، ومن ميل إلى الزهد فحكموا بأن التصوف مأخوذ عن الفرس .

وفى رأى آخر أن التصوف الإسلامى مأخوذ عن دين الهند ، وفى دين الهند القديم ما يشبه ما فى التصوف ، كما أن فى الهند ميلا ملحوظا إلى الزهد والتقشف ، فقيل إن التصوف مأخوذ عن الهند .

وفى رأى حديث أن التصوف إتجاه ظهر عند بعض الفرس ، حينما رأوا أن المسلمين انقسموا شيعا وأحزابا ، فتناحروا ، وتقاتلوا ، ولم يجتمعوا على رأى واحد فى عقائدهم ، فرأى هؤلاء العلماء تهدئة للحال وإصلاحا لها ، وحقنا لدماء المسلمين أن يكون المذهب هو المذهب الصوفى الذى يوحد بين الأديان ، ويجعل أساس التفكير الدينى هو العشق الإلهى ، وبذلك تحقن دماء المسلمين ، ويجتمعون على عقيدة واحدة ، هى معرفة الله بالعشق والكشف ، وبهذا يجتمعون على شئ واحد بعد أن تفرقوا فى أشياء .

وفى رأى أن التصوف منبثق من الدين الإسلامى ، وأن الصوفية الأوائل لم يكونوا من الفرس ، ولا من الهند بل كانوا من العرب ، وهذا أكيد فى دلالته على أن التصوف الإسلامى صادر عن الإسلام ، وليس فارسيا ولا هنديا .

وفى رأى آخر أن التصوف مأخوذ عن اليونان ، أو عن الأفلاطونية الحديثة ، وفيها اتجاهات روحية تشبه ما فى التصوف ، فمال فريق من العلماء إلى أن التصوف منبثق من الأفلاطونية الحديثة .

العوامل التى أدت لنشأة التصوف

اختلف الباحثون فى العوامل التى أدت لنشأة هذا التصوف ؛ فمنهم من يقول إنه بعد وفاة الرسول S ، إختلف المسلمون فيمن يخلفه ، وكثرت الفرق ، والأحزاب ، ووقع الشقاق بين المسلمين ، وتسافكوا دمائهم ، ورأى هذا فريق من أهل التقوى وهو ما لا عهد لهم به فى عهد الرسول ، بل إن صريح القرآن يحرم على المسلم أن يحمل السيف على أخيه المسلم ، فرأوا فى هذا ما يتعارض مع الدين ، وما لا يجوز فى الإسلام ، بل عدوه زيغا وضلالا .

إلا أنهم لما رأوا هذا المنكر عجزوا عن أن يغيروه بيدهم ، أو بلسانهم فاكتفوا بتغيير قلوبهم ، وآثروا العافية ، فاعتزلوا أولئك المتناحرين المتقاتلين ، وقبعوا فى مساجدهم للتعبد ، وقطعوا مابينهم وبين دنيا الناس من أسباب ، واعتزلوا عما يموج حولهم فى حياة صاخبة ، يتنازع فيها المتنازعون على حطام الدنيا ، والدنيا فناء ، فجعلوا يعبدون الله ، وتتأذى نفوسهم بما يدور حولهم ، فكانوا العُبَّاد ، والزُّهَّاد ، وهؤلاء العُبَّاد والزُّهَّاد يعدون الرعيل الأول من المتصوفة .

وذلك أن التصوف زهد ، وعبادة ، فى أول مرحلة من مراحله ، إلا أن هذا الزهد ، وتلك العبادة ، إذا بولغ فيهما ، افضتا العابد الزاهد إلى

التأمل ، وإلى الفكر المجرد ، فالعابد يصبح بعد ذلك عاشقا للذات الإلهية ، فالإفراط فى التقوى إفراط فى محبة الله ، والإفراط فى المحبة هو العشق .

فهؤلاء العُبَّاد رقت قلوبهم للتقوى ، وبالغوا فيها فطال بهم التأمل ، وأكثروا من العبادات ، لأنها كانت ما يشغلهم عما حولهم ، ووجدوا فيها عزائهم عما تراه عيونهم حولهم فتتأذى نفوسهم ، وتحزن قلوبهم على ما آلت إليه حال المسلمين ، بعد موت سيد المرسلين ، فدب الفساد فى النفوس ، ورق إيمان المؤمنين ، وتناسوا ما أمر الدين به ، ونهى عنه ، وتهافتوا على دنيا يعبدونها ، ورياسة يبلغونها ، وسلكوا إلى ذلك كل سبيل ، واستحلوا فيه ما حرم الله من سفك الدماء .

واستغرق هؤلاء العباد فى العبادة التى أفرطوا فيها ، والتقوى التى رقت قلوبهم لها ، مما أفضى بهم إلى أول مرتبة من مراتب العشق الإلهى فكانوا الرعيل الأول من الصوفية .

وفى رأى آخر ، أن الرعيل الأول قوم من العرب يعرفون بالتوابين ، وهم قوم حاربوا مع على بن أبى طالب الذى كان يطالب بحقه فى الخلافة ، إلا أنه لم يبلغ من ذلك مبلغا ، وانهزم أمام من نازعوه فيها ، وغلبوه عليها وسلبوه حقه المشروع ، وكان هؤلاء التوابون من رجال جيشه ، غير انهم تخونوا عهده ، وخذلوه فى القتال ، مما أفضى به إلى الهزيمة .

ولما رأوا ما آلت إليه حاله ، استيقظت ضمائرهم ، وانبتهم على إثمهم ، فقرعوا سن الندم ، وآثروا أن يبالغوا فى العبادة ، رجاة أن يحط الله عنهم خطيئتهم ، وهى خذلان على وهو من آل بيت الرسول ، فأخذ منهم الأسى كل مأخذ ، وتابوا فعرفوا بالتوابين من ذنوبهم ، واستعانوا بالعبادة

على هذه التوبة ، وبالغوا فى عبادتهم ، وزهدهم ، فكان منهم من عشقوا الذات الإلهية فى المرتبة الأولى من مراتبها .

إن التصوف فى بداياته عرف الزهد ، والزهد والتصوف كلاهما يمكن أن يمثل رد فعل ثورى ضد الواقع الاجتماعى الردئ سواء كان سياسيا أو اجتماعيا ، فقد لاحظ أكثر من باحث أن السنوات الأولى للإسلام شهدت أن اتقياء المسلمين ثاروا على النظام السياسى القائم كما ثاروا على النظام غير العادل ، فكما قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة إيجابية ، قاوموا الحكم السياسى الجائر بطريقة سلبية فكأنهم بذلك ثاروا على سلطة الحكام وسلطة النفس . ولكن الحقيقة التى لا ينبغى إغفالها هو أن هناك فرقا بين الزهد والتصوف ، فكل تصوف زهد وليس كل زهد تصوفا .

التصوف و الصوفية

التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة فى السلوك يتخذهما الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقى ، وسعادته الروحية ، وتتحقق بواسطة رياضيات عملية معينة تؤدى إلى الشعور فى بعض الأحيان بالفناء فى الحقيقة الأسمى ، والعرفان بها ذوقا لا عقلا ، ويصعب التعبير عن حقائقها بالفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع وذاتية .

وقد عرفه ابن خلدون بقوله : " علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة " .

والتصوف بلوغ الحقيقة ، ومعرفة الله ، وما يتعلق بهذا كله من أسباب ، لا اعتمادا على قوة العقل ودقة المنطق ، بل إتكاء إلى صفاء القلب وشفافية السريرة ، فالتصوف لون من ألوان المعرفة ، إلا أنها لها دلالة خاصة وهى المعرفة بالقلب لا بالعقل ، ففى رأيهم أن العقل أعجز ما يكون عن

الإدراك ، وهو يترلق فى الخطأ ، أما القلب ، أو الروح فإنها لا تخطئ ، فالصوفى الحق يعتمد على القلب فى المعرفة ، وذلك إنه إذا رق قلب للعشق الإلهى ، وصَفَت نفسه من كل شائبة فإن الله يلقى المعرفة فى قلبه نورا وإلهاما فيدرك ما يدرك بما يعرف عند الصوفية بالكشف أو المكاشفة ، وهذا الكشف منبثق من ذلك القلب الطهور الذى يموج بعشق الذات الإلهية .

والله يلقى فيه المعرفة وحيا وإلهاما ، فالمعرفة عند الصوفية بالعشق أى برقة القلب لعشق الذات الإلهية ، وليس بالعقل ، وكان هذا دأبا لهم ، ومذهبا ، لا يبغون عنه حولا ، ولذلك روى عن كثير من الصوفية ، أنهم دفنوا كتبهم ، أو طرحوها فى النهر ، معلنين بذلك أنهم فى غنية عن تقليب نظرهم فى كتاب ، أو كد ذهنهم فى تحصيل علم ؛ لأن الله الذى رقت قلوبهم لمحبته ، كافأهم على ذلك بإلهامهم تلك المعرفة ، أو كأن علمهم هو علم العشق .

والمعرفة لدى الصوفية نابعة من القلب ، وليست نتيجة للفكر والتدبر ، وتلك نعمة من نعم الله عليهم اختصهم بها دون غيرهم ، من خلقه لأنهم يحبون الله والله يحبهم ، ولذلك كانوا فى تصوفهم ، وفى تفكيرهم ، وفى كلامهم ، وفى شعرهم ، ومسلكهم يختلفون اختلافا جوهريا عن غيرهم من المسلمين ، مثال ذلك إنهم لايفسرون القرآن كما يفسره غيرهم ، بل يفسرونه تفسيرا تأويليا ، معتمدين فيه على الكشف ، أو على الإلهام ، وهذا ما أوقع الخلاف بينهم وبين غيرهم .

فاتهمهم المسلمون بالمروق من الدين ، وكَفَّروهم ، كما اتهم اتهموا غيرهم من ليسوا على مذهبهم بالجهلة ، والعجز كل العجز عن تجاوز القشور إلى اللباب ، ولهم مع غيرهم من المسلمين كلام طويل ، ونزاع شديد

لهذا السبب ، وقد أفضى هذا بشعراء الصوفية من الترك ، إلى أن يَأْلَفوا فى شعرهم التهكم المرير بغيرهم ، كأن يسخروا منهم ، ومن مظاهر تهكمهم أنهم يَتَحدُّون غيرهم ، بأنهم مستمسكون بمذهبهم ، لا يبغون عنه حولا ، وليقل القائلون ما يقولون .

بل ويتجاوزون هذا إلى أن يطلقوا على أنفسهم من الأسماء ، ويجروا عليها من الصفات ، ما تتأذى به نفس المؤمن ؛ فالصوفى يسمى نفسه فى الشعر " رند " بمعنى الخليع أو السكير ، ويسمون غير الصوفى بالزاهد ، فالسكِّير مثلا هو غاية الغايات فى المروق من الدين ، والزاهد غاية الغايات فى التقوى ، فكأنهم يريدون أن يقولوا نعم نحن كفرة فجرة ، وأنتم اتقياء بررة ، ومع هذا فنحن خير منكم ، موتوا بغيظكم ، وقولوا ما أنتم قائلين .

فهذا القبيل من الأسماء والصفات إن دل على شئ فإنه قاطع الدلالة على إنهم إنما أرادوا أن يتهكموا ، ويسخروا من غيرهم ، وأن يستعلوا عليهم ومنهم من عمدوا إلى حلق شعورهم ، وشواربهم ، وحواجبهم إيغالا منهم فى تشويه مظهرهم ذهابا منهم إلى إعلان أنهم لا يهتمون بالظاهر ، بل بالباطن ، ولا يبالون بالحكم عليهم ، وقول الناس عنهم ، وحسبهم أن يكون ما بينهم وبين الله عامرا.

كان الصوفية يعتزون بعلمهم اللدنى ، أو عشقهم الإلهى ، وهم يعتمدون على القرآن الكريم والحديث الشريف ، على أنهما أصل مذهبهم ، إلا أنهم فى نظرتهم إلى كلام الله ، يختلفون عن غيرهم ؛ لأنهم كما أسلفنا يؤولون القرآن ، فيفهمون من آياته ما لا يفهم من ظاهرها ، فكـأنهم يطوعون كلام الله لمذهبهم ، وهو من الأسباب التى أوقعت الخلاف والنفور بينهم ، وبين غيرهم من المسلمين .

وهم فى شعرهم يعتزون بأنفسهم ومذهبهم ، ولكلامهم ظاهر غير مقصود ، وباطن هو المقصود ، وكلامهم رمز وإيماء ، وقد جنحوا إلى هذه الرمزية ، اعتزازا منهم بكلامهم ومذهبهم ، وصونا له عن أن يساء فهمه ، أو أن يبتذل عند من لا يفهمونه ، وهذا ما جعل كلامهم حافل برموز خاصة بهم ، واصطلاحات بعينها لا يحيط بشئ من علمها إلا الراسخون فى العلم ، وإلا من قَلَّب نظره فى التصوف .

ومما يلحظ أن الصوفية تمثلوا كيان التصوف ، أو ما ينبغى أن يعمل الصوفى ليصل إلى الحقيقة بالطريق أو الطريقة ، وهذه الطريقة ينبغى لمن أراد أن يكون صوفيا أن يسلكها ، وهى أشبه شئ بالمنهج التعليمى الذى ينقسم إلى مراحل ، فمن المعلوم أن الطالب ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، إلى أن يصل إلى نهاية مرحلة من مراحل التعليم التى يسلكها ، ويمكن أن نذكر انهم يسمون ذلك المنهج .

والمنهج أو النهج هو الطريقة سواء بسواء ، فكأن الطريقة عند الصوفية هى المنهج التعليمى الخاص بهم ، وهو ينقسم إلى مراحل ينبغى للصوفى أن يسلكها ، ولذلك يسمى الصوفى الذى يأخذ بأصول التصوف السالك ، أى انه يسلك طريقا خاصا ، كما يسمى شيخه المرشد ، والمرشد هو الدليل أو الرائد الذى يتقدم من يدله على الطريقة ، فطريق الصوفية كثير المراحل ، ويمكن القول على وجه الإجمال أن هذا الطريق ، طريق صعب وعر تكتنفه الشدائد ، ولا يسلكه إلا من وطن العزم على تحمل تلك الشدائد ، ونعنى بذلك ما يأخذ به الصوفى من رياضات ، ومجاهدات ، ومن إنهاك الجسد بالصيام ، والقيام حتى تصفو روحه ، وتتلقى المعرفة من بعد نورا وإلهاما .

نشأت الحياة الصوفية فى الإسلام بأفراد يسلك كل منهم فى عبادته ومجاهداته طريقته الخاصة ، و لم يكن للصوفية حتى نهاية القرن الثانى حياة منتظمة داخل الزوايا ، ولكن سرعان ما ظهرت فى جماعاتهم روح النظام ، وتجمعوا حول المشايخ فى حلقات الوعظ ، وكان ذلك فى المساجد أولا ، ثم فى حلقات الذكر داخل الخانقاوات بعد ذلك ، و لم يمض طويل زمان حتى كان مشايخ الصوفية على رأس جماعات منتظمة ، تأخذ كل جماعة تعاليمها وآدابها بطريقة خاصة ، فمن معانى الطريقة إذن الأسلوب الخاص الذى يعيش الصوفى بمقتضاه ، فى ظل جماعة من جماعات الصوفية تابعة لأحد كبار المشايخ . أو هى مجموعة التعاليم والآداب والتقاليد التى تختص بها جماعة من هذه الجماعات .

ولكن لكلمة " الطريقة " معنى آخر أعم وأشمل . إذ أن معناها أيضا الحياة الروحية التى يحياها السالك إلى الله أيا كان ، وسواء أكان منتسبا إلى فرقة من فرق الصوفية أم غير متسب ، وتابعا لشيخ من شيوخ الطرق أم غير تابع .

وليست " الطريقة " بهذا المعنى الثانى سوى المعراج الروحى عند الصوفية ، وهى التى أطلقوا عليها اسم " السفر " و " السلوك " و " المعراج " وقسموها منذ أقدم العصور إلى مراحل أو منازل سموها بالمقامات ، كما سموا الأحداث النفسية والمغامرات الروحية التى تعرض لهم فيها باسم الأحوال . يرى السالك فى هذا الطريق أشياء لا يراها غير الصوفى ، وتعترض سبيله عقبات لا تعترض سبيل غير الصوفى ، وتعتريه أحوال لا يعانيها غير الصوفى ، فلا يجد لغة يعبر بها عن هذه الأمور كلها سوى لغة الرمز والإشارة .

المقامات

المقامات جمع مقام – بالتذكير – وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل فى حضرة الخليفة أو الملك ، والمقام فى الأصل المجلس . أما المقام عند الصوفية فمعناه : مقام العبد بين يدى الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله ومنه آية القرآن ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾(١).

فالمقام هو المنزلة الروحية التى يقوم عليها السالك أو يقيمه الله تعالى فيها حتى ينتقل إلى المنزلة التى تليها ، فمعلوم أن المقام هو موضع الإقامة فى طريق المسافر لأن المسافر لا يستطيع أن يسير على الدوام بل ينبغى أن يقف وقفة ليستريح من عناء الطريق ، أو أن يقيم فى موضع حتى يستجم ، إلا أن المسافر فى وصوله إلى تلك المقامات ، أو فى طيه تلك المراحل ينبغى أن يكون قد سار سيرا طويلا ولقى من سفره نصبا ، وهنا نلمح وجه الشبه بين مقام أو مقامات المسافر ومقامات الصوفى .

فالصوفى ينبغى أن يأخذ نفسه بمشقة المجاهدات ، وشدة الرياضات ، حتى يتدرج فى مراحل طريقه الذى يفضى به إلى المعرفة ، أو أن يتدرج فى منهجه الصوفى فى مراحله المتتالية ، وهو أشبه ما يكون بالطالب الذى ينتقل من مرحلة تعليمية إلى أخرى .

---

(١) سورة ابراهيم : الآية ١٤ .

ويختلف عدد هذه المقامات وأوصافها باختلاف الصوفية ، ولكنها تبتدئ عادة بمقام التوبة وتنتهى بمقام الرضا ، وقد قسم الصوفية المقامات إلى : التوبة — الورع — الزهد — الفقر — الصبر — التوكل — الرضا . ولا يترقى السالك فى الطريق من مقام إلى مقام حتى يستوفى أحكام المقام السابق .

التوبة

ونبدأ بالتوبة وهى أول مترلة من منازل السالكين وأول مقام من مقامات المتصوفة ، وهنا ندرك إنها الأصل أو الأساس فى أحكام التصوف ، وهى عبارة عن قلب حال الطالب وتغيره ، كما أنها بداية لحال جديدة . أما التوبة فى لغة العرب فمعناها : الرجوع والعود ، كما يقال : تاب أى رجع ، فكأن المعنى الحسى هو مجرد الرجوع ، أما المعنى الاصطلاحى فالتوبة هى الرجوع عن ما كان مكروها ومذموما فى الشرع إلى ما هو محمود فيه .

فالرجوع عن ما نهى الله عنه إلى الصواب مما أمر به إنما هو حقيقة التوبة . فعن النبى S " إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له " ، وقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] . وأول التوبة انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة .

وقد عرَّف الصوفية التوبة بقولهم : " انها تنبه الروح من غفلة الجهل بحيث أن المذنب يقف على الذنوب التى ارتكبها ويتضجر من سوء سابقته ، لكن التنبه والتذكر لا يكفيان إلا أن يكون التائب قد ترك كل ما كان يقترفه من ذنوب تركا كاملا ، وبالإضافة إلى ذلك يكون التائب قد عقد النية على ألا يعود مطلقا إلى ما فرط منه سابقا من المعاصى ، كما أنه إذا لم يستطع ان يوفى بنذره وعهده فينبغى له أن يعود إلى صوابه وينيب إلى الله .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

والتوبة فى رأى أكابر الصوفية إنما هى نتيجة لفضل الله ورحمته ، التى تشمل حال العاصين حتى يختص برحمته من يشاء ، ومعنى ذلك أن الله يختص برحمته من أراد من غير أن يكون هناك واسطة ، أو علل ، أو أسباب كى يعلموا أنه عطاء محض .

وقال النبى S : " التوبة ندم " ، وهذا اللفظ مودعة فيه شرائط التوبة جميعها ، فإن أحد شروط التوبة هو الأسف على المخالفة ، وثانيها الذلة فى حالة الترك ، والثالثة هى عدم العزم على معاودة المعصية ، وهذه الشروط الثلاثة من لوازم الندم ، لأن الندم إذا حصل فى القلب يكون الشرطان الآخران تبعا له . وللندم ثلاثة أسباب ، كما أن للتوبة ثلاثة شروط، أحدها أنه عندما يتسلط الخوف من العقوبة ، ويستولى غم الأعمال عليه يحصل الندم ، وثانيه إن طلب النعمة يستولى على القلوب ، ويصير معلوما أنه لا يتحقق بالفعل السئ والمعصية فيندم العبد حينئذ مؤملا ألا يحصل ذلك ، وثالثها : الحياء من مشاهدة الله اياه (العبد) ، والندم على المخالفة ، فعند ذلك يكون الأول تائبا ، والثانى منيبا ، والثالث أوابا .

والتوبة النصوح هى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك الجوارح ، وإضمار أن لا يعود التائب إلى الذنب . وجملة ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال : أولها أن لا يعصى الله تعالى . والثانية أن لا يصر إذا ابتلى بمعصية ، والثالثة التوبة إلى الله تعالى منها ، والرابعة الندم على ما فرط منه ، والخامسة عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت ، والسادسة خوف العقوبة ، والسابعة رجاء المغفرة ، والثامنة الاعتراف بالذنب ، والتاسعة اعتقاد أن الله قدَّر عليه ذلك وأنه عدل منه ، والعاشرة المتابعة بالعمل الصالح ليكفر عما تقدم من السيئات .

ومن علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة ، ولا تصح للتائب توبة إلا بأكل الحلال ، ولا يقدر على الحلال حتى يؤدى حق الله تعالى فى الخلق ، وحق الله تعالى فى نفسه ، ومن شرط التوبة أنه ينبغى للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصى ثم بنفسه التى كان يعصى الله تعالى لها فلا ينيلها إلا ما لا بد منه .

وينبغى لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم فى كل طرفة ، ويدعوا كل شهوة ويتركوا الفضول ، وهى ستة أشياء : ترك فضول الكلام ، وترك فضول النظر ، وترك فضول المشى ، وترك فضول الطعام ، والشراب واللباس .

واختلف الصوفية فى نسيان ما سلف من الذنوب ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك ، وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وهذان طريقان لطائفتين ، وحالان لأهل مقامين ، فأما ذكر الذنوب فطريق المريدين وحال الخائفين ، وأما نسيان الذنوب فطريق العارفين وحال المحبين .

فسهل بن عبد الله وجماعة من المشايخ رحمهم الله يعتقدون أن التوبة هى أن لا تنسى الذنب الذى ارتكبته أبدا ، وان تكون دائم التفكير فيه حتى اذا كانت لك أعمال حسنة كثيرة فلا تعجب بها ، لأن التاسف من الأعمال السيئة مقدم على الأعمال الصالحة ، ولا يكون هذا الشخص معجبا بنفسه وناسيا لذنبه أبدا ، كما أن الجنيد وجماعة من أقطاب التصوف رحمهم الله يعتقدون أن التوبة تتحقق بتناسى كل ما كان التائب يتوق إليه ، ويتشوق لرؤيته .

ولا يقف الصوفية عند التوبة من الذنوب ، لأنها فى رأيهم توبة العوام بل يدعون إلى التوبة من الغفلة ، وهى عندهم توبة الخواص ، وقد أشار إلى ذلك ذو النون فقال : " شتان بين تائب وتائب ، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات .

ولقد أمر الله تعالى بالتوبة ، وحث عليها ، وحبب فيها ، وأوجبها فى بعض الأحيان . والواقع أنها اللبنة الأولى فى طريق إسلام الوجه لله ، ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، تفضلا منه ورحمة ، يقول سبحانه فى حديث قدسى : (يا عبادى إنكم تخطئون باليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروا أغفر لكم) .

ويقول رسول الله S : " كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون " . وتصل التوبة فى سموها فتكون مما سوى الله تعالى ، ورسول الله S يخبر أن الله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده المؤمن ، ويعرفنا رسول الله S أن ربنا يترل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادى : (ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه) .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى صورة من تجلى الرحمة وسعة من شمول الرأفة بالعباد : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1] ، ويلى هذه الآية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا

(١) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

تُنصَرُونَ﴾[١] ، ثم بين لهم الطريق الصحيح الذى يلى التوبة إذا صَدَقَت ، بقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾[٢] .

وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع أن يستقيم الإنسان على الطريق والله سبحانه يسد على الذين يبين لهم الطريق المعاذير فيما بعد ، مهددا تهديدا يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمن رحيم .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم يبدأون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدأون شهر رمضان بالتوبة ، ويبدأون الحج بالتوبة . والرحلة المباركة رحلة الإسراء والمعراج بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر هو التوبة الخالصة النصوح ، لأن التوبة تَطَهُّر وطُهْر . وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكن بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الإنسان ويغسلانه بالثلج والماء والبَرَد ، أو بماء زمزم ، أى يطهرانه .

إن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، إنها تَجُب ما قبلها ، أى تزيله وتمحوه والتوبة التى من هذا النمط لها شروط ، لابد من توافرها ، حتى تهيئ الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة .

قال العلماء : " التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط : أحدها أن يقلع عن المعصية . والثانى أن يندم على فعلها . والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدا ، فإن فقد أحد الشروط الثلاثة لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق

---

(١) سورة الزمر : الآية ٥٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٥٥ .

بآدمى فشرطها أربعة : هذه الثلاثة و أن يبر أ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه ، مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى . وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

وفى تراجم أحوال الصوفية العظام نرى أنهم غالبا ما يكونون قد رأوا فى عالم النوم أو حدثت لهم حوادث فى عالم اليقظة من قبيل أشياء رأوها بالعين أو سمعوها بالأذن أو أحسوا بها على نحو آخر بحيث قلبت حالهم وأثارتهم على أن ينحرفوا عن خط الحياة العادى فأصبحوا سالكى الطريقة ، وفى رأى الصوفية ان هذه الأحداث كانت بمثابة جذبة لحقت بهم ودفعتهم إلى سبيل الرشاد كنجم الهداية .

مثال ذلك ما قيل عن صوفى معروف هو إبراهيم بن أدهم ، وكان فى بداية الأمر أميرا من أمراء بلخ يتقلب فى أعطاف النعيم ، وينكب ويتهافت على محاسن الدنيا ، وهذا كل دنياه ، بينما كان مستلقيا على سريره ذات ليلة سمع ضجة أناس على سطح قصره ، ولما تحقق من ذلك سألهم عن السبب فقالوا : " انا فقدنا بعيرا نبحث عنه على سطح القصر " ، فقال متعجبا : " كيف تبحثون عن البعير الضال فوق سطح قصرى ؟ " فأجابوه قائلين : " وأنت كيف تبحث عن طريق الوصول إلى الله وأنت على سرير الملك ؟ " .

وكان هذا مما رقق قلب الأمير الماجن للتوبة فأصبح صوفيا ، لأن التوبة هى أول مقام من مقامات الصوفية أو هى بداية الطريق الذى يسلكه الصوفى أو السالك فى طريق التصوف .

يقول الهجويرى :" اعلم أن أول مقامات السالكين فى طريق الحق هو التوبة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[1] وقال أيضا : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].، وقال النبى S : " ما من شئ أحب إلى الله من شاب تائب " ، وقال أيضا : " اذا أحب الله عبدا لم يضره بذنب " ثم تلا : ﴿ نَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾[3] ومعنى ذلك أن التائب يتطهر من الذنوب ، ومتى ما أحب الله عبدا لا يأخذه بضرر ذنبه .

وللتوبة مقامات ثلاثة : الأول التوبة ، والثانى الإنابة ، والثالث الأوبة ؛ ويراد بالتوبة خوف العقاب وبالإنابة طلب الثواب ، وبالأوبة مراعاة الأمر لأن التوبة مقام عامة المؤمنين ، وهى الرجوع عن الكبائر لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ ، والإنابة مقام الأولياء والمقربين لقوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[4] والأوبة هى مقام الأنبياء والمرسلين لقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[i] .

---

(١) سورة التحريم : الآية ٨ .

(٢) سورة النور : الآية ٣١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

(٤) سورة ق : الآية ٣٣ .

(٥) سورة ص : الآية ٤٤ .

فالتوبة اذن هى الرجوع عن الكبائر إلى الطاعة ، والإنابة هى الرجوع عن الصغائر إلى المحبة ، والأوبة هى الرجوع من النفس إلى الله تعالى ، وأصل التوبة من زواجر الحق تعالى ، وتنبه القلب من نوم الغفلة ، ومشاهدة عيوب الحال ؛ وعندما يفكر العبد فى سوء أحواله وقبح أفعاله ويتخلص منها ييسر الحق تعالى أسباب التوبة له ، وينقذه من شؤم معاصيه ويبلغه حلاوة الطاعة .

وجائز عند أهل السنة أن يتوب الواحد من معصية فى حين أنه يرتكب ذنوبا أخرى ، فالله تعالى يوفيه ثواب امتناعه عن ذلك الذنب الواحد ، ومن الجائز أيضا أن يعصمه ببركة تلك التوبة عن ذنوبه ، كأن يكون مثلا رجل مدمن شرب الخمر وارتكاب الزنا ، فاذا ماتاب عن ارتكاب الزنا و أصر على شرب الخمر تقبل الله توبته عن ذلك الذنب الواحد مع ارتكابه الذنب الآخر .

هذا ونورد الآن بعضا من أقوال آكابر الصوفية فى التوبة ، يقول الجنيد البغدادى : " للتوبة معان ثلاثة : الأول : الندم ، الثانى : العزم على عدم تكرار المعصية ، الثالث : تطهير النفس من المظالم والخصومة " .

ويقول أبو يعقوب يوسف بن حمدان السنوسى : " أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى التوبة " ، وسئل السنوسى عن التوبة ، فقال : " التوبة الرجوع عن كل شئ ذمه العلم ، إلى ما مدحه العلم " ، وقد عقب الطوسى على كلامه فقال : " إن تلك توبة المريدين وهم الذين تارة لهم وتارة عليهم " . ويؤخذ من قوله إنه يفرق بين التائبين من المتصوفة وغيرهم ، ويقسمهم درجات متفاوتة فى الفضل .

يقول ذو النون المصرى : " توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة " ، وقال : على كل عضو نوع من التوبة ، فتوبة القلب هى عقد النية على ترك الحرام ، وتوبة العين هى غضها عن المحارم ، وتوبة اليد كفها عن المناهى ، وتوبة القدم منعها عن السير إلى الملاهى ، وتوبة السمع صونه عن سماع الأباطيل ، وتوبة البطن تناولها الحلال .

وقال : " التوبة نوعان احداهما توبة الإنابة ، وثانيهما : توبة الاستحياء ، قتوبة الإنابة هى أن العبد يتوب خوفا من عقاب لله تعالى . وتوبة الاستحياء : أن يتوب العبد حياء من كرمه عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : " التوبة فريضة على العبد أيا كان ، من الخواص أو من العوام ، مطيعا كان أو عاصيا .

سئل الجنيد محمد عن التوبة ما هى ؟ فقال : " هو نسيان ذنبك " ، وسئل سهل عن التوبة ، فقال : " هو ألا تنسى ذنبك " . فمعنى قول الجنيد أن تخرج حلاوة ذلك الفعل من قلبك خروجا لا يبقى له فى سرك أثر ، حتى تكون بمنزلة من لا يعرف ذلك قط . وعقَّب صاحب اللمع على ما ذكر الجنيد بقوله : " إنه ذكر توبة المتحققين الذين لا يذكرون ذنوبهم لما غلب على قلوبهم من عظمة الله " .

وقال رويم : معنى التوبة أن تتوب من التوبة ، معناه ما قالت رابعة : " استغفر الله من قلة صدقى فى قولى استغفر الله " . سئل الحسين المغازلى عن التوبة فقال : " التوبة توبتان ، توبة الإنابة وتوبة الاستجابة ، فتوبة الإنابة أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك ، وتوبة الاستجابة أن تستحى من الله لقربه منك " ، وقال النورى : " التوبة أن تتوب من ذكر كل شئ سوى الله عز وجل " .

ويقول أبو الحسن البوشنجى فى التوبة : " إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره فهو التوبة " .

فإن ذكر المعصية إما أن يكون منبعثا من الحسرة وإما عن الإرادة ، فإذا ذكر أحد ذنبه بالحسرة والندم يكون تائبا ، وكل من ذكر المعصية بارادته يعد مذنبا ؛ لأن فعل المعصية لا يكون فيه الآفة بقدر الإرادة لأن فعلها صادر فى زمن واحد ، ولكن الإرادة مستمرة دائمة . فالذى يكون جسمه ساعة فى المعصية لا يكون كالذى يستمر قلبه ليلا ونهارا منشغلا بارادة المعصية .

والخلاصة أن التوبة تأييد ربانى ، والمعصية فعل جسمانى . قال الله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1] . فالتوبة على ثلاثة أقسام : أولها : من الخطأ إلى الصواب . وثانيها : من الصواب إلى الأصوب . وثالثها : من الصواب ذاته إلى الحق . فالتوبة من الخطأ إلى الصواب كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾[2] ، والتوبة من الصواب إلى الأصوب هى ما قاله موسى : " تبت إليك " ، والتوبة من النفس إلى الحق ما قاله النبى S : " وانه ليران على قلبى وانى لاستغفر الله فى كل يوم سبعين مرة " .

(١) سورة البقرة : الآية ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٥ .

المرشد الولى

والتائب ينبغى أن يكون بعد التوبة مطيعا لشخص حتى يرشده ، وعليه أن يختار حسب اصطلاح الصوفية مرشدا لنفسه ، ولهذا المرشد أسماء مختلفة : منها " المرشد ، الولى ، ، والشيخ ، والقطب ، والدليل " ، وهو شخص له علم وتجربة كافية وقد وصل إلى الحق نفسه .

يقول الشاعر لامعى فى ترجمة كتاب نفحات الأنس للجامى فى باب الولاية والولى : " الولاية قسمان ، ولاية عامة وولاية خاصة " ، فالولاية العامة تشمل جميع المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ ﴾[1] . والولاية الخاصة مختصة بالواصلين من أرباب السلوك ؛ وهى عبارة عن فناء العبد فى الحق وبقائه به ؛ فالولى هو الفانى فيه والباقى به .

قال ابراهيم بن الأدهم رحمة الله عليه لرجل : " أتريد ان تكون وليا من أولياء الله ؟ " ، قال : " نعم " ، قال : " لا ترغب فى شئ من الدنيا والآخرة ، وأفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ، وعندما تجتمع فيك هذه الأوصاف تصبح وليا " .

ومتى ما انتخب السالك وليه ومرشده وسلم إليه يد التبعية ينبغى أن يكون مطيعا له فى كل ما يقول ويعد أوامره واجبة غير مترددة فى تنفيذها .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٧ .

ويقول الهجويرى فى كشف المحجوب :" اعلم أن هذه الولاية متداولة بين الخلق والكتاب والسنة ناطقان بها لقوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] ، وقال أيضا : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[2] ، وقال فى موضع آخر : ﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾، وقال الرسول S " إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء ، قيل من هم يا رسول الله ، صفهم لنا نحبهم ، قال : " قوم تحابوا بروح الله من غير أموال ولا اكتساب وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن اناس " ، وقال النبى أيضا : " من أن الله عز وجل يقول : من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى " .

---

(١) سورة يونس : الآية ٦٢ .

(٢) سورة فصلت : الآية ٣١ .

الورع

تكلمنا بالتفصيل عن التوبة فيما تقدم وهى أول مقامات السالكين . وقلنا : حينما يوفق السالك إلى التوبة والرجوع عن المعاصى يجب عليه أن تعقبهما عناية مرشد له حتى يرشده فى منازل السير والسلوك .

وبعد التوبة التى أيقنا إنها المقام الأول أو المقام الأهم عند الصوفية ، وذلك لأنها المرتبة الأولى للتقوى ، لأن التقوى هى الامتثال لأوامر الله والانتهاء عن نواهيه ، والخروج من الذنوب ، فإذا ما تطهر العبد من شائبة الذنب فقد طهرت نفسه . ننقل إلى مقام آخر من مقامات الصوفية هو مقام الورع ، الذى يعد المقام الثانى لأصحاب الطريقة ؛ لإنه إذا صدقت التوبة ، استلزمت لا محالة : الورع . والورع من المقامات الشريفة ، وهو ملاك الدين .

والورع لغة هو الاحجام عن الشئ ، ومعناه الاصطلاحى هو التأثم من ارتكاب المعاصى ، والورع هو أن يترك الإنسان كل مافيه شبهة ، ولا نتحدث عن ترك الحرام : وذلك أن التوبة الصادقة إنما هى توبة عن الحرام كل الحرام . ومن الصوفية من يتورع عن الشبهات ، وهى ما بين الحرام البيِّن والحلال البيِّن وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ، ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك . ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك فى صدره ،

وهذا لايعرفه إلا أرباب القلوب ، وهناك ورع العارفين والواجدين ، وهم الذين يرون أن كل ما يشغلك عن الله فهو مشئوم عليك .

قال النعمان بن البشير : سمعت رسول الله S يقول : " إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسدكله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب " .

ومن ذاك ما رواه الحسن بن على " رضى الله عنهما " قال حفظت من رسول الله S : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " . والورع يكون فى الحديث ، و القلب ، والعمل .

أما فى الحديث فإنه التورع عن اللغو بجميع دروبه ، إنه ترك كلمات الفضول ، وترك حديث ليس من شأنه إلا قطع الوقت دون فائدة أو ثمرة . ولا تدخل الغيبة والنميمة فيما نحن فيه ، وذلك إننا فى مستوى لا يترل إلى مستوى الآثام والذنوب .

والورع فى القلب ، هو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتسامى الورع فى القلب حتى يصل إلى ما يقوله الإمام الشبلى وهو من كبار أئمة التصوف : " الورع : أن تتورع عن كل ما سوى الله " .

أما الورع فى الأفعال ، فإنه يتضمن التحرى فيما يتعلق بالمأكل ، والمشرب ، ، والملبس ، حتى يكون كل ذلك من حلال طيب . وقد قال الرسول S لسعد بن أبى وقاص : " يا سعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ،

ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به " ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله S : " أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث الشعر أغبر ، يمد يده إلى السماء ، يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنَّى يستجاب ذلك ؟" .

يقول أبو على الدقاق : " كان الحارث المحاسبى إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ، ضرب على رأس إصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال ، وقال : " إن بشرا الحافى دعى إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه ، فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه : إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ ؟ .

والورع من منازل سير السائلين ، بل هو دليلهم الذى يبين لهم الطريق فالطريق هو السير فى ما يبعد بهم عن المعاصى ، ويعده الصوفية الذين يؤلفون فى التصوف المقام الثانى ، فإذا كانت التوبة هى المقام الأول أى الخروج من المعاصى ، فما يتلو هذا التخرج والتأثم من الوقوع فى المعصية حتى لا تنتقض التوبة ، ويقول بشر الحافى : " الورع هو الخروج والابتعاد عن الشبهات ، ومحاسبة النفس فى كل طرفة عين " ، وهنا ندرك معنى الورع

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٥١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٢ .

فى وضوح فهو ليس مجرد التأثم من الوقوع فى الخطيئة ، بل التأثم من الوقوع فيما يشتبه أن يكون إثما ، ويقترن بذلك محاسبة النفس على ذلك فى كل لحظة ، فموضوع الورع كما قيل هو الوقوف من الشريعة موقف من يعلم إن الشريعة فيها الحرام وفيها الحلال ، ولكن فى هذا الحل ، وتلك الحرمة شبهات كثيرة ، وهى خفية فيقتضى هذا أن من يعمل عملا أيا كان ، يقع فى الشك والحيرة ، ويخالجه الريب فى أن يكون من الخاطئين ، ويحزنه أن يكون قد اقترف إثما ، وما يصده عن هذا هو ما يعرف بالورع .

ويقال إن أصحاب الورع على ثلاث طوائف فمنهم من يكف عن مافيه شبهة أية شبهة مع أن الحرام بيِّن والحلال بيِّن ، فهو مع ذلك يساوره الشك فى هذا مع وضوحه .

أما الطائفة الأخرى من أهل الورع فهم أهل القلب الذى يرشدهم قلبهم إلى ضرورة الكف عن أمر وتركه ، فهم لا يقنعون بأن الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، بل يستجيبون لهاتف فى نفوسهم وصوت فى قلوبهم يلهمهم الإحجام عن عمل ، يشكون فى حله وحرمته ، وفى هذا يروى عن النبى S قوله : " الإثم ما حاك فى صدرك " ، فيؤخذ من هذا أن المؤمن الموقن يشعر فى قرارة نفسه بأن ما ارتكبه إثما ، فهو يصغى إلى هاتف فى نفسه ، ولا يكتفى بما اتفق الناس على حله وحرمته ، بل إنه يضرب عن رأى الناس صفحا مستجيبا إلى ما فى صدره وهو إلهام من الله .

أما الطائفة الثالثة من أهل الورع فهم العارفون الواصلون الذين يرون أن كل ما ليس إلهاما إلهيا تخفق به قلوبهم بوحى من ربهم ، هؤلاء القوم يحجمون عنه لأنهم يرون صلة بين قلبهم ، وبين ربهم فالله يتصل بهم ويوجههم عن طريق قلوبهم ، وبذلك يختلفون عن الطائفة السابقة التى

تستجيب لما يهجى به القلب لأنهم فى استجابتهم لقلوبهم إنما يوقنون أن الله تعالى هو الذى يتصل بهم ، ويلهمهم ويأمرهم إلهاما فى قلوبهم .

وخلاصة ما ذكروه فى الورع هو : أن الشريعة أو ضحت الحلال والحرام ، بيد أنه قد تحدث شبهات متنوعة وغامضة ومبهمة للغاية فى بعض الأوقات فيخشى أن يقع فى الحرام كل من يحوم حولها .

قال صاحب كتاب اللمع : أهل الورع ثلاث طبقات : أولاها : أن المرء يجتنب كل ما يكون فيه شبهة . وهذا فى الأشياء التى تقع بين الحرام البيِّن والحلال البيِّن ، أى لا يصدق تسميتها بالحلال المطلق أو الحرام المطلق ، بل تكون بين هذا وذاك ، وبمجرد أن يشعر الإنسان الوَرِع بشبهة أو شك يتركه فورا .

ثانيتها : ورع أهل القلب أى ورع شخص يترك اتيان أمر بمجرد شعوره بعدم رغبة قلبه فى ذلك الأمر .

ثالثتها : ورع العارف الواصل ، وهو ما قال أبو سليمان الدارانى : " إن كل ما يمنع القلب من التوجه نحو الله شؤم " . وبناء على هذا فإن الورع كما بينه الشبلى ثلاثة أنواع الأول : ورع العموم ، الثانى : ورع الخصوص ، والثالث : ورع خصوص الخصوص .

هذا ونذكر الآن نبذة من أقوال آكابر الصوفية فى الورع حتى يزداد وقوع الغرض الواقعى من مقام الورع الذى هو من جملة المقامات والرياضات الأخلاقية الخاصة بتصفية باطن السالكين . قال بشر الحافى : " أصعب الأمور ثلاثة : الكرم عند الفقر ، والورع فى الخلوة ، والكلام عند من تخشاه " .

يقول القشيرى : " أما الورع فإنه ترك الشبهات " ، ويقول ابراهيم بن أدهم : " الورع ترك كل شبهة " ، وترك ما لا يعنيك " ، وقال أبو سليمان الدارانى " : " الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا " .

ودخل الحسن البصرى مكة ، فرأى غلاما من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فقال له الحسن " ما ملاك الدين ؟ فقال : " الورع " ، فقال له : " فما آفة الدين ؟ فقال : " الطمع " ، فتعجب الحسن منه .

يقول سهل بن عبد الله التسترى : " لا يكمل إيمان المرء إذا لم يكن عمله مقرونا بالورع ، ولا يكون ورعه إلا بالإخلاص ، وإخلاصه لا يكون إلا بالمشاهدة ، والإخلاص هو التبرؤ من كل ما سوى الله " .

قال يحيى بن معاذ الرازى : " الورع هو الوقوف عند حد العلم من غير تأويل " . وقال الورع نوعان : " ورع فى الظاهر لا يتحرك إلا لله ، وورع فى الباطن وهو الذى يرسخ فى قلبك ولا يدركه إلا الله " .

وقال أبو سليمان الدارانى : " القناعة من الرضا وهى بمنزلة الورع من الزهد وأول هذه هو الرضا وأول ذلك هو الزهد " . وقال أيضا : " لا أعرف للزهد حدا ولا للورع حدا ولا للرضا حدا وغاية ، ولكنى أعرف طريقا منه ، الورع فى اللسان أصعب من الذهب والفضة فى القلب ، لا تشهد لأحد بالزهد لأنه غائب فى القلب عنك ، وحاضر فى الورع " .

وقال ابراهيم الخواص : " الورع دليل الخوف من الله ، والخوف دليل المعرفة ، والمعرفة دليل التقرب إلى الله " . وقال الشيخ أبو على الدقاق : " كل من ترك الحرام نجا من النار ، وكل من ترك الشبهة ينال الجنة ، وكل من ترك الزيادة وصل إلى الله " .

ومن أشرف ما قيل فى الورع قول أبى سعيد الخراز : " الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق ومن مثاقيل الذر حتى لا يكون لأحدهم قبلك مظلمة ولا دعوى . وهذا رأى سديد ، فنحن فى الأغلب ننسى حقوق الناس ، وهى كثيرة جدا ، يتصل بعضها بالسلوك ، وبعضها بالمعاش ، ولا يستطيع تحقيق الورع على هذا الوجه إلا الأقلون .

الزهد

الورع يقتضى الزهد ، وهو من أهم المقامات ، والزهد مقام شريف وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل والمنقطعين إلى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شئ بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة . والمراد هو الزهد فى الحلال الموجود ، وأما الحرام والشبهة فتركه واجب .

والزهاد ثلاث طبقات : الطبقة الأولى : المبتدئون ، وهم أولئك الزهاد الذين قصرت يدهم عن الدنيا وخلا قلبهم من طمع الدنيا مثل أيديهم كما سألوا الجنيد ما الزهد ؟ فقال : " خلو اليد من ملك الدنيا وخلو القلب من الطمع " .

الطبقة الثانية : وهم المتحققون فى الزهد الذين هم مصداق قول الصوفى والزاهد المشهور ، رويم بن أحمد حيث يقول : " الزهد هو ترك حظوظ النفس من كل ما فى الدنيا ذلك لأن فى الزهد لذة نفسية بمعنى أن الزهد يسبب راحة الخاطر واستراحة الضمير ، كما يجلب المدح واعجاب الناس بالنسبة للزاهد ويجعله عزيزا محترما فى نظرهم ، فالزهد الواقعى بحسب ما يراه رويم يتحقق عندما يترك القلب كل لذة .

الطبقة الثالثة : طبقة الزهاد الخواص ، أى أولئك الذين طافوا أقاليم العشق السبعة ورموا كل شئ وراءهم ظهريا ، وهذه الطبقة هم زهاد حتى فى الزهد نفسه . سألوا الشبلى : ما هو الزهد ؟ فقال : " الزهد نوع من الغفلة لأن الدنيا عدم ، والزهد فى اللاشئ غفلة " . وهم الطبقة التى قال فيها حافظ الشيرازى : انهم كبروا التكبيرات الأربع على كل موجود واعتبروا ما سوى الله فانيا معدوما ، وعدوا الزهد سببا للتأخر فى الطريق .

قال يحيى بن معاذ : " الدنيا كعروس يعد طالبها مشاطة لها ، والزاهد يجتهد فى تنقيص جمال تلك العروس ، والعارف مشتغل بالله ، ولا يلتفت لأمر الدنيا أبدا . ونورد الآن بعض أقوال مشاهير الصوفية ها هنا : قال مالك بن دينار : سألت الحسن : ما هى عقوبة العالم ؟ قال : موت القلب ، قلت : ما هو موت القلب ؟ قال : " حب الدنيا " .

وقال فضيل بن عياض : " الخوف والمهابة من الله بقدر علم العبد ، وزهد العبد فى الدنيا على قدر رغبته فى الآخرة " . وقال أيضا : " لقد جمعوا كل البذاءات فى بيت واحد مفتاحه بغض الدنيا " .وقال : " الشروع فى الدنيا سهل يسير ، ولكن الخروج والخلاص منها صعب عسير " . قال ذو النون المصرى : " الزهاد ملوك الآخرة والمتصوفة هم ملوك الزهاد . وقال أيضا : " آية حب الله هى أن يترك العبد كل ما يشغله عنه تعالى حتى يبقى هو وشغل الله فقط .

وقال سفيان الثورى : الزاهد هو الذى يحقق الزهد بفعله فى الدنيا ، والمتزهد من كان زهده بلسانه . وقال أيضا :" ليس الزهد فى الدنيا ارتداء الخرقة وأكل خبز الشعير ، ولكنه عدم تعلق القلب بالدنيا وتقصير الأمل ". وقال أبو سليمان الدارانى : " الزهد هو أن تترك كل ما يمنعك عن الله ".

ولما قدم حاتم الأصم بغداد (وكان من قدماء صوفية خراسان) أخبروا الخليفة بذلك قائلين له : لقد قدم زاهد خراسان ، فاستدعاه الخليفة ، فلما دخل حاتم من الباب خاطب الخليفة بقوله : " أيها الزاهد " ، قال : " انى لست بزاهد لأن الدنيا كلها طوع أمرى انما الزاهد أنت " . قال حاتم : " لا بل أنت الزاهد الذى يقول الله تعالى فيه : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾[1] وأنت العبد الذى اقتنع بذلك ، فالزاهد أنت لا أنا الذى يطأطئ الرأس للدنيا والعقبى فكيف أكون زاهدا ؟ " .

وقال سهل بن عبد الله التسترى " ان توجه العباد إلى الله زهد " ، وقال يحيى بن معاذ الرازى : " الزهد ثلاثة أحرف : الزاى والهاء والدال ، أما الزاى فترك الزينة ، والهاء ترك الهوى ، والدال ترك الدنيا " ، وقال : " ينشأ عن الزهد السخاء بالملك ، وعن الحب السخاء بالنفس والروح " وقال : " الزهد : أن تكون أحرص على ترك الدنيا منك على طلبها " ، وقال : " الزاهد صاف بالظاهر ومعكر الباطن ، والعارف صاف بالباطن ومعكر فى الظاهر " .

---

(١) سورة النساء : الآية ٧٧ .

الفقر

ويأتى بعد مقام الزهد مقام الفقر ، وهو عند الصوفية مقام شريف ، و يتنزل عند الصوفية أعظم مقام من مقاماتهم ، يؤيدهم فيه قول الرسول S " الفقر أزين بالعبد المؤمن من العذار الجيد على خد الفرس " ، وفى امتداح الفقر يقول قائلهم وهو إبراهيم الخواص : " الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين ، وتاج المتقين ، وزينة المؤمنين ، وغنيمة العارفين ، ورغبة المريدين وحصن المطيعين ، وسجن المذنبين ، ومكفر للسيئات ، ومعظم للحسنات ، ورافع للدرجات ، ومبلغ إلى الغايات ، وكرامة أهل ولايته من الأبرار ، وشعار الصالحين ودأب المتقين " .

وهنا نقف وقفة لنميز بين الفقر فى معناه اللغوى وفى معناه الاصطلاحى الصوفى ، فالفقر لغة ضد الغنى ، ولكن الفقر عند الصوفية ليس مجرد خلو اليد من الشئ بل خلو القلب من الميل إليه والرغبة فيه ، فينبغى للصوفى أن يكون خالى اليد والقلب جميعا فالزهد عندهم يقتضى معانقة الفقر واختياره .

ويقسم أبو نصر السراج الطوسى الفقراء ثلاث طبقات حيث يقول فى كتاب " اللمع " بعد أن نقل الآية الشريفة "[1] لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ " والحديث النبوى ، وأقوال كبار العارفين فى مقام الفقر ووصف

---

(١) سوة البقرة : الآية ٢٧٣ .

الفقراء ، يقول ما معناه : "الفقراء على ثلاث طبقات : الأولى : هم الذين لا يملكون شيئا ولا يسألون أحدا شيئا لا سرا ولا جهرا ، ولا يتوقعون شيئا من أحد وإذا أعطى لهم شئ لا يأخذونه ، وهذا مقام المقربين ".قال سهل بن على سهل الأصفهانى فى حق هذه الطبقة من الفقراء : " حرام أن يسمى أصحابنا بالفقراء لأنهم أغنى خلق الله " .

الثانية : اولئك الذين لا يملكون شيئا ولا يسألون أحدا ولا يطلبون ولكن إذا اعطوا شيئا أخذوه ، قال سهل بن عبد الله : " الفقير الصادق هو من لا يسأل ولا يرد ولا يحبس وهذا مقام الصديقين ". الثالثة : أولئك الذين لا يملكون شيئا وإذا احتاجوا رجعوا إلى بعض إخوانهم فى الطريقة ممن يسرهم إنجاز طلبهم وهذا مقام الصديقين فى الفقر .

وينبغى لإدراك أهمية الفقر والانقطاع عن العلائق الدنيوية أن ترجع لقدماء المشايخ من قبيل مالك بن دينار ومحمد بن الواسع وابراهيم بن الأدهم وداود الطائى وأن تعلم أن هذه العقيدة كانت شائعة إلى حد أن قيل : " رأى كبير القيامة فى المنام وسمع من ينادى أن أدخلوا مالكا بن دينار ، ومحمد بن الواسع الجنة ، قال : " نظرت لكى أرى أيهما يلج الجنة قبل الآخر ، وإذا بمالك قد سبق إلى الدخول " ، قلت : " يا للعجب ، فإن محمدا الواسع هو الأفضل والأعلم " ، قالوا : " نعم ، لكنه كان لمحمد الواسع فى الدنيا قميصان ولمالك قميص واحد ، وهذا التفاوت انما حصل لأنه هنا لا يمكن أن يتساوى قميص واحد مع قميصين ، أى اصبر حتى لا تزيد على حساب قميص واحد .

هذا وينبغى أن نعلم بأن الفقر الذى كان فى بادئ الأمر يشير إلى الأشياء المادية تطور معناه شيئا فشيئا حتى أصبح له معان واسعة : إذ صار

الفقر فى نظر صوفية العهود المتتالية ممن تبدو من أحوالهم زيادة الميل إلى الوجد والشوق الروحى فى أعمالهم وأقوالهم ، إن الفقر الحقيقى لا يكون بفقدان الغنى فقط بل يتحقق بفقدان الميل والرغبة فى الغنى والثروة أى : ينبغى أن يكون قلب الصوفى خاليا ويده خالية كذلك ، وفى هذا المعنى يقول الصوفى " الفقر فخرى " .

ويتباهى بتسمية نفسه بالفقير والدرويش لأن مفهومه هو أن الفقير ينبغى أن يكون بعيدا عن كل ميل ورغبة تسبب انحرافه عن الله : والصوفى الصادق من خلع نعلى الكونين من قدميه : أى قطع علاقة قلبه بالدنيا والآخرة أيضا وهذا معنى الفقير الحقيقى ، ومثل هذا الفقير يكون قد تخلى عن وجوده بحيث لا ينسب لنفسه أى عمل أو صفة أو احساس .

فالفقير بهذا المعنى من الممكن أن يكون ثريا أو أن تكون له مترلة وشأن فى الظاهر ويعد فى نفس الوقت من أفقر الفقراء ، لأن الله تعالى يجعل أولياءه بلباس أهل الثروة والجاه والمقام أحيانا حتى يخفيهم عن أنظار أهل الظاهر .

ويعد الفقر من المراحل الهامة للسير والسلوك وأول خطوة فى التصوف ، يقول عبد الرحمن الجامى فى نفحات الأنس أثناء حديثه الخاص عن " الصوفى " ، و" المتصوف " ، و" الملامتى " ، " والفقير " والفرق بينهم : " أما الفقراء فهم تلك الفئة التى تكون قد حرمت نفسها من كل متاع الدنيا وأسبابها وتركت كل ذلك بغية الوصول إلى الفضل والرضوان الإلهى .

والفرق بين الفقير والملامتى والمتصوف هو أنه يطلب الجنة ولذة النفس ، وهذان يطلبان الحق والتقرب ، وهو فيما رواء هذه المرتبة ، لأن فى

الفقر مقاما فوق مقام الملامتية والمتصوفة ، وهذا وصف خاص بالصوفية لأن الصوفى رغم أن مرتبته تكون فيما وراء الفقر إلا أن خلاصة مقام الفقر مندرجة فى مقامه ، وسبب ذلك أن اجتياز مقام الفقر يعد من جملة شروط ولوازم الصوفى ، ويزداد صفاء ونقاء أثناء ارتقائه من أى مقام إلى مقام آخر .

وتفوق مقام الصوفى على مقام الفقير بأن الفقير بارادته للفقر وارادة حظ النفس يكون محجوبا ، بينما لا يكون للصوفى أى ارادة خاصة ، وارادته فى صورة الفقر والغنى فانية فى ارادة الحق ، بل إن ارادته هى عين ارادة الحق .

قال أبو عبد الله الخفيف رحمه الله : " الصوفى من استصفاه الحق لنفسه توددا والفقير من استصفى نفسه فى فقره تقربا " . وقال بعضهم : " الصوفى هو الخارج عن النعوت والرسوم ، والفقير هو الفاقد للأشياء " . وقال أبو العباس النهاوندى رحمه الله :" الفقر بداية التصوف " .

أما الفرق بين الفقر والزهد فهو أن الفقر يمكن وجوده بغير زهد . كأن يعزم أحد على ترك الدنيا عزما أكيدا ولكنه لا يزال راغبا فيها . وكذلك يمكن وجود زهد بغير فقر بأن يكن أحد منصرفا عنها مع وجود أسباب الرغبة .

ونورد الآن بعضا من أقوال العارفين فى باب الفقر ، جاء رجل بعشرة آلاف درهم إلى ابراهيم بن الأدهم فردها إليه وقال : " أتريد أن تمحو اسمى من ديوان الفقر بعشرة آلاف درهم " . سأل رجل رويما : " ما هى صفة الفقير ؟ فقال : " ثلاثة أشياء ، حفظ السر ، وأداء الفرض ، وصيانة الفقر " . قال ابراهيم ابن الأدهم : " اننا طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى ، بينما كان الناس يطلبون الغنى فاستقبلهم الفقر " .

وقال النورى : " نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود " .

يقول شفيق البلخى الذى يعد من قدماء المشايخ ومن المعاصرين لابراهيم بن الأدهم : " يقترن الفقر بثلاثة أشياء : فراغ القلب وخفة الحساب وراحة النفس ، كما يلازم الأغنياء ثلاثة أشياء : تعب البدن ، وانشغال القلب ، وصعوبة الحساب .

وقال ذو النون المصرى : " علامة غضب لله على العبد خوف العبد من الفقر "

قال ابن الجلاد : " الفقر ألا يكون لك ، فإذا كان لك لا يكون لك ، على معنى قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1] . وقال الكنانى : " إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله ، لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر " .

وقال الدراج : " فتشت كنف أستاذى أريد مُكحُلَة ، فوجدت فيه قطعة فضة فتحيرت ، فلما جاء قلت له : " إنى وجدت فى كنفك قطعة " ، فقال : " قد رأيتها ! ردها " ، ثم قال : " خذها واشتر بها شيئا " . فقلت له : " ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك " ، قال : " ما رزقنى الله من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها ، فأردت أن أوصى أن تشد فى كفنى وأردها إلى الله عز وجل " .

وقال الكلابادى : " سمعت فارسا يقول : " قلت لبعض الفقراء مرة – ورأيت عليه أثر الجوع والضر – لم لا تسأل الناس فيطعموك ، قال :

---

(١) سورة الحشر : الآية ٩ .

" أخاف أن أسألهم فيمنعونى فلا يفلحوا ، وقد بلغنى عن النبى S أنه قال : " لو صدق السائل ما أفلح من منعه " . وعن النبى S قال : " الفقر أزين للعبد المؤمن من العذار الجيد على خد الفرس " .

يروى أن درويشا قام فى مجلس الشيخ أبى على الدقاق وقال : " انى فقير ولى ثلاثة أيام لم أذق شيئا "، وكان هناك جماعة من المشايخ ، فصرخ الشيخ فى وجهه وقال : " أنت كذاب ، لأن الفقر سر الملك ، ولا يفضح الملك سره عند أحد يتكلم عنه ويعرضه على زيد وعمرو ".

قال الشيخ أبو عبد الله الخفيف قدس الله سره : " الفقر عدم الامتلاك والخروج عن أحكام الصفات " ، وهذا وصف جامع يشتمل على رسم الفقر وحقيقته ، وسألوه أيضا عن الفقير الذى ظل جائعا ثلاثة أيام ثم خرج وسأل أن يعطوه ما يسد به رمقه بماذا يسمى ؟ قال : يسمونه الكذاب .

وقال البعض : " الفقير الذى لا يملك ولا يملك ". يقول جلال الدين الرومى فى المجلد الأول من المثنوى فى بيان أن الشحاذ كما يعشق الكريم فكذلك الكريم يعشق الشحاذ ، فإن كان الشحاذ صبورا يأتى الكريم بنفسه إلى باب داره ، وإن كان الكريم أكثر صبرا جاء الشحاذ إلى بابه ، ولكن الصبر يعتبر كمالا للشحاذ ونقصا للكريم .

ونعود إلى النبى S لتجدهم يرددون قوله : " الفقر فخرى " ، متخذين منه شعارا لهم لا يملون ترديده ، ويعتزون به لما ينم عنه من أسباب فخرهم ، وهم يتلاعبون بكلمة " فقر " وكلمة " فخر " ، كما حكى عن أحدهم إنه كان يقول حرام على كل من يسمى أصحابنا الفقراء لأنهم أغنى

خلق الله ، فالفقير على هذا المفهوم بالمعنى الصوفى هو أغنى الأغنياء .

وللشاعر العثمانى عاشق باشا المتوفى عام ١٣٣٢م. منظومة عنوانها " فقر نامه " بمعنى كتاب الفقر ، وقد أدار قوله فيها على الفقر بالمفهوم الصوفى ، وجنح إلى التمثيل والتخييل ، فشبه ذلك الفقر بطائر طار عن الحضرة الإلهية ومضى عمن يبحث أن يحط عنده ، ولقد رغب عن رفقة العرش والكرسى والجنة والشمس والأرض وآدم وموسى وعيسى وإبراهيم ولكنه حط عند محمد S لأنه خير البرية والموصوف بكل جميل . ولعل فى مثل هذا من صنيع ذلك الشاعر التركى الصوفى إيضاحا لفكرة الفقر بكل ما يحتمل من معانٍ .

ومن عجب أن هذا الفقر كان موضع اهتمام المصلح الإسلامى الباكستانى المعروف محمد اقبال ، علما بأن محمد اقبال كان ضد الصوفية فى كثير ، أو على التحديد كان ضد التطرف فى التصوف ، ولقد ذكر الفقر فى كل كتاب من كتبه تقريبا ، وذكره على المعنى الصوفى ، وهو كما أسلفنا ضد التطرف فى التصوف ، الداعى إلى الاعتزال عن الحياة ، وقطع الأسباب بين الإنسان وبين ما يموج حوله منها ، ويؤخذ من هذا تأسيسا على فرط اهتمام اقبال وهو ضد التصوف بتكرار ذكر الفقر فى كل كتبه ، إن هذا الفقر أهم مقوم لكيان الروح ، إذا تطهرت من كل شائبة ، بل وهو الذى يسمو بها إلى المثل الأعلى الذى يطلبه الصوفية ، وإن نسينا فلا ننسى أن الصوفية اتخذوا من الفقر شعارهم بهذا المفهوم الصوفى .

وفى هذا ما يكفى من الدلالة على ما للفقر من دقاق المعانى عند الصوفية وعظيم أهميته بين تعاليمهم ومبادئهم .

الصبر

ولكى يتأكد مفهوم هذا الفقر عند الصوفية نذكر مقام آخر يتصل به وهو مقام الصبر ، فالصبر مقام شريف ، والفقر يقتضى الصبر ، وإذا لم يتخذ السالك فى طريق الحق محنة الصبر والتحمل شعارا فلا تحصل له أى نتيجة ، وليس الفقر من غير الصبر خاليا من النتيجة فقط ، بل إن السير فى بقية مقامات السلوك يقتضى الصبر أيضا ، ولهذا قال الصوفية الصبر نصف الإيمان بل الإيمان كله .

فأداء كل فريضة وترك كل معصية لا يتم إلا بالصبر ، لأن قلب السالك يكون مشغولا فى أى مقام وحال كان عليها ، فهو إما موافق لرغبته أو مخالف لرغبته فإنه فى حاجة إلى الصبر على كلتا الحالتين .

أما الصلة بين الفقر والصبر فهو أن الإنسان إذا كان فقيرا على المفهوم الصوفى أى إنه خالى اليد من الشئ وخالى القلب من الرغبة فى هذا الشئ ، فما من شك فى إنه يعانى من ذلك ويكابد ، وهو فى ضيق وشدة ، وهنا لابد أن تفضى به تلك الحالة إلى الصبر ، أى حبس النفس على ما تجد من مكروه ، وفى تلك الحالة يكون هذا الصبر وثيق الصلة بالإيمان ، لأن الصوفية على ذكر من إنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له ، فكأنه إذا تسخط قضاء الله فقد خرج عن هذا الصبر ، وخرج عن إيمانه بالله ، وبالتالى عن محبة الله ، فالصبر بهذا المعنى هو رسوخ الايمان فى القلب بالله الذى يمتحن العبد

والذى يبتلى العبد ، فعلى العبد أن يكون من الصابرين مادام عاشقا للذات الإلهية .

وقد مدح الله تعالى الصبر أى مدح الصابرين كثيرا فى كتابه بقوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] ، وهنا نلمح حقيقة لا يسعنا أن نغفلها وهى أن الصوفية فى تقنين أحكامهم وتشكيل قوام لمذهبهم ، إنما يعتمدون أساسا على ما جاء فى القرآن . فهذا صاحب اللمع أبو نصر السراج الطوسى حينما يبدأ كلامه يمهد بين يدى كلامه بهذه الآية الكريمة .

وقد جعله على بن أبى طالب ركنا من أركان الإيمان ، فقال بنى الأسلام على أربع دعائم : على اليقين والصبر والجهاد والعدل ، وروى عن النبى S أنه قال : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ، ثم قرأ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

وكان سهل يقول : " أفضل منازل الطاعة الصبر عن المعصية ، ثم الصبر على الطاعة ، وقال :" الصالحون فى المؤمنين قليل ، والصادقون فى الصالحين قليل ، والصابرون فى الصادقين قليل ، فجعل الصبر خاصية للصدق .

وقد قال بعض العلماء : " ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيمانا ، وقد قال الله تعالى فى جزاء المخلصين ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ

---

(١) سورة الزمر : الآية ١٠ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٦ .

رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾[1] ، وقال تعالى فى جزاء الصابرين ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] . والصبر أَشَق على النفس ، وأَمَر على الطبع ، ويصعب فيه الألم والكظم عند الذل والضيم ، ومنه التواضع والكتم ، وفيه الأدب وحسن الخلق ، وبه يكون كف الأذى عن الخلق ، وهذه من عزائم الأمور التى يضيق منها أكثر الصدور .

إن الصبر كما قال صاحب اللمع على ثلاثة أقسام : متصبر ، وصابر ، وصبار . فالمتصبر هو : كل من صبر فى الله ، ومثل هذا يصبر أحيانا على المكاره وأحيانا يبقى عاجزا . والصابر : هو من يصبر لله وفى الله ولا يجزع ولا يشكو .

وفى تعريف الصبر نورد قول الجنيد البغدادى حيث قال : " إنه حمل مؤن الله تعالى حتى تنقضى أوقات المكروب " ، وقال غيره : " الصبر أن تصبر فى الصبر " ، معناه : أن لا تطالع فيه الفرج .

وقال سهل : " الصبر انتظار الفرج من الله تعالى ، قال : " وهو أفضل الخدمة وأعلاها " ، وقال أيضا : " فى قوله ﴿ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاَةِ ﴾[3] ، أى استعينوا بالله واصبروا على أمر الله ، واصبروا على أدب الله سبحانه ، وقال : " الصبر مقدس تقدس به الأشياء " .

وقال أبو عمرو الدمشقى فى قوله تعالى : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[4] ، أى مسنى الضر فصبرنى ، لأنك أرحم الراحمين " ،

---

(١) سورة الصافات : الآية ٤١ .

(٢) سورة الزمر : الآية ١٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٣ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ٨٣ .

وقال غيره : " مسنى الضر الذى تخص به أنبياءك وأولياءك بلا استحقاق منى لكن لأنك أرحم الراحمين .

وقال إبراهيم الخواص : " هرب أكثر الخلق من حمل أثقال الصبر ، فالتجأوا إلى الطلب ، والأسباب واعتمدوا عليها ، كأنها لهم أرباب ، وسأل رجل الشبلى ، فقال : " أى الصبر أشد على الصابرين ؟ " فقال : " الصبر فى الله تعالى " ، ويفهم من تعريف الخواص للصبر إن الصبر فيه معاناة أية معاناة ، ومكابدة يالها من مكابدة ، وهو شديد على النفس ، والنفس تضج منه ، وتلتمس منه المهرب أو عليه ، فهذا من صفاته يجعله مقاما هاما من مقامات الصوفية ، لأن المقام يقتضى من الصوفى المجاهدة ، والمكابدة ، ثم إنه يتهم من خرجوا عن صبرهم ، وفروا بهم ، بالإشراك لأنهم فى صبرهم غفلوا عن أن صبرهم فى الله ، فلما تجاوزوا هذا أو كرهوه وكرهوا منه فكأنما لجأوا إلى غير الله وهذا إشراك .

وحكى عن ذو النون أنه قال : " دخلت على مريض أعوده فبينما كان يكلمنى أنَّ أنَّة فقلت له : " ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه " ، فقال : " ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه " . ويؤخذ من هذا أن الصبر وهو تحمل المكروه ، وأيا كان هذا المكروه فإنه متصل بالله فى تصور الصوفية ، لأن قضاء الله هو الذى يوقع المكروه بالإنسان ، فالصوفى الذى يحب الله كما يحب انسان إمرأة مثلا لا بد أن يتحمل هذا المكروه على أنه لاحق به من حبيبه وإلا لما كان محبا صادقا .

فالصابر على هذا الوجه يتلقى المكاره بالقبول ويراها من نعم الله ، وعند التأمل نرى العناية الإلهية تسوق إلينا الشدائد لحكمة عالية ، والجاهل هو الذى يضجر ويحزن ويكتئب ، أما العاقل فيلتمس وجوه الخير فيما يبتليه

الله به من الشدائد ، وقد جربنا فرأينا النقم تساق لمنافع مستورة نجهلها كل الجهل ، ثم تظهر رويدا رويدا فنرى الخيرة فيما اختاره الله ، ونندم على ما اسلفنا من الحزن والاكتئاب .

وحكى عن الشبلى أيضا أنه عندما حملوه إلى المستشفى وأقاموه هنالك ذهب إليه بعض أصدقائه فسألهم الشبلى : من أنتم ؟ قالوا : نحن أصدقاؤك ، فرمى الشبلى آجرة نحوهم ففروا جميعا ، فقال الشبلى : " أيها الكذابون ، كيف تدعون صداقتى فى حين أنكم لا تصبرون على ضربى ؟ أما الصبار فهو من كان صبره فى الله ولله ومن الله .

وجاء فى كتاب تذكرة الأولياء ، كلمات فى الصبر رويت عن الأولياء نذكر بعضها على سبيل المثال :

يقول أبو سليمان الدارانى : "أحسن أيامنا الصبر وهو نوعان : صبر على مكاره قضاء الله ويجب احتماله ، وصبر على رغبات النفس الصادرة عن الهوى فيما كان الحق قد نهاك عن اتيانه ، وقال الخير الذى لايكون فيه شر هو شكر على النعمة وصبر فى البلاء ".

قال عمرو بن عثمان المكى : " الصبر هو القيام مع الله وتقبل البلاء ببهجة وارتياح .

وقال الجنيد البغدادى الصبر هو حث النفس على أن تكون مع الله فى غير أن تجزع ". وقال : " غاية الصبر التوكل " ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] . وقال : " الصبر هو تجرع كل مر بغير عبوس .

---

(١) سورة النحل : الآية ٤٢ .

وقال أبو الحسين النورى : " رأيت شيخا ضعيفا عاجزا يضربونه بالسياط وهو صابر ثم حملوه إلى السجن ، فذهبت إليه وقلت له : " كيف صبرت على آلام السياط مع ضعفك وعجزك "، فقال : يابنى يمكن احتمال البلاء بالهمة لا بالبدن " . قلت : " ما هو الصبر عندك ؟ قال : " أن تكون حال المرء عند نزول البلاء كحاله عند زوال البلاء " .

قال الشيخ أبو عبد الله محمد الخفيف :" التصوف هو الصبر تحت مجارى الأقدار ، والتقبل من الملك الجبار ، وقطع الفيافى والقفار " ، وسألوه أيضا : " متى تتحقق العبودية ؟ قال : " عندما يوكل كل أموره إلى الله ويصبر على البلايا " .

وقال أبو محمد الحريرى : " الصبر هو ألا يختلف حال المرء فى المحنة والنعمة باطمئنان النفس فى الحالين ، والصبر هو سكون النفس فى البلاء " .

قال أبو سليمان الدارانى : " إن لله عبادا يستحون أن يعاملوه بالرضا فى الصبر ، أى انى صبور بذاتى ، ولكن لم يكن شئ فى الرضا ، وأن يكون كما هو ، فالصبر متعلق بك والرضا بأمره " .

وقال أيضا : " خير أيامنا الصبر . والصبر نوعان : صبر على مكاره قضاء الله ويجب احتماله . وصبر على رغبات النفس الصادرة عن الهوى فيما كان الحق قد نهاك عن اتيانه " . وقال : " الخير الذى لا شر فيه هو شكر على النعمة وصبر فى البلاء " .

وعناية الصوفية بالصبر عنصر تمثل جانبا هاما من تصورهم لكرائم الخلال ، فالصبر فى جوهره من عناصر الشجاعة فى مقاومة الشدائد ، والشدائد قد تكون حسية وقد تكون عقلية . والصبر عنصر أصيل فى الحياة الخلقية ويظهر فضله فى كل باب من أبواب العيش ؛ فيكون فى العادات ،

وفى طلب العلم ، وفى الصناعات وفى معاملة الناس ، ويكون فى الصحة ، وفى المرض ، وفى الحب ، وفى البغض ، وفى النعيم ، وفى البؤس .

ويميل أكثر الصوفية إلى تفصيل الصبر على الشكر ، لأن الصبر حال البلاء والشكر حال النعمة ، والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق ، وعند أكثرهم أن الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف ، لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى ، فمن فضل الشكر على الصبر فى المعنى فكأنه قد فضل الغنى على الفقر . على أن من الصوفية من فضل الشكر على الصبر .

التوكل

يرى الصوفية أن مقام التوكل من أسمى مقامات المقربين ، وأنه من المقامات التى يصعب فهمها من ناحية العلم لأنه غامض . كما أن العمل به صعب جدا ، والتوكل من فروع التوحيد ، أى أن التوحيد هو الأصل الحقيقى والموجد للتوكل . والتوكل لفظ مشتق من " وكالة " والموكول إليه يسمى " وكيلا " ومفوض الأمر يسمى " متوكلا " .

والتوكل ما أمر الله به تعالى وجعله مقرونا بالإيمان فى قوله : ﴿ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1] ، ويأمر سبحانه به أمرا مطلقا كل مؤمن فيقول : ﴿ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] وفى موضع آخر : ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] ، ، فكأنه جعل توكل المتوكلين هو توكل المؤمنين .

وإذا توكل الإنسان على الله سبحانه وتعالى فإن ثمرة ذلك أمران : الأمر الأول هو حب الله له ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[4]

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ١٢ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٥١ .

(٣) سورة : المائدة الآية ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٥٩.

والأمر الثانى هو كفاية الله له ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[1] .

وقد سئل يحيى بن معاذ — وهو من أئمة الصوفية - : متى يكون الرجل متوكلا فقال : إذا رضى بالله وكيلا .

ويقول الله تعالى على لسان سيدنا هود : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] .

وسئل بعض الصوفية عن التوكل فقالوا إنه طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر .

ويؤخذ من هذا أن الصوفى لا يهتم بجسده أى اهتمام ، وإنما اهتمامه بالروح فى المقام الأول ، كما أن معنى إهمال الجسد إهمال عبودية ، إشارة لترك الأمور لتجرى من حول الجسد ، وتوجه هذا الجسد ، أو صاحب هذا الجسد كيفما شاء ، وعلى الإنسان ألا يتحكم فى جسده ، ويترك هذا الجسد كأنه عبد الله يوجهه ، ويحركه كيفما شاء ، ولكنه عليه أن يعقد قلبه بالربوبية أى أنه يكون على ذكر من الله على الدوام ، وأن ينسى جسده ، لتصنع به المقادير ما شاءت ، أو يرفع عنه إرادة توجيهه ، وأن يجعله عبدا لقضاء الله ، ولا يتحكم فيه أما قلبه فعليه أن يكون معقودا بالله ، وألا يقطع الصلة بينه وبين الله .

---

(١) سورة الطلاق : الآية ٣ .

(٢) سورة هود : الآية ٥٦ .

والطمأنينة هنا هى القناعة والاقتناع بأن ما أراده الله هو حسب الإنسان ، فلا يعترض المتوكل على قضاء الله ، بل يلقى إلى الله أزمة أموره ، وعلى الله أن يوجهها على ما يشاء ، ولكن شريطة أن يكون قلبه وحده هو الموصل بالذات الإلهية ، فهو مادام عامر القلب بالإيمان مقتنع اقتناعا جازما بأن ما يصنعه الله به هو العدل ، وهو الحق فليس له أن يفكر فيه ، ولا أن يعترض عليه شأنه فى ذلك شأن العبد الذى لا يسعه إلا أن ينصاع لأمر مولاه ، دون أن يسأله لم أمره عن هذا و لم نهاه عن ذلك .

ويقول ذو النون : " التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة " ، ويؤخذ من هذا التعريف أن الإنسان قبيح به أن يدبر أمر نفسه ، وعليه أن يسلم القياد لرب العباد ، كما أن عليه أن يكف يده عن عمل يدبر به نفسه ، وعليه أن يزود عن فكرة إنه يستطيع بقدرته أو قوته أو حيلته أن يصنع لنفسه شيئا ، وعندهم أن هذا هو الإيمان بالله ، أى أن الله هو وحده المتصرف فى عباده ، وليس للعبد من أمره شئ ، وأن هذا هو مفهوم الإيمان .

وفى رأى صوفى آخر أن التوكل هو الاسترسال مع الله على مايريد ، أى أن الإنسان لا ينبغى أن يعترض على أى أمر من الأمور مهما كان هذا الأمر . هذا المعنى أوضح ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يمتنع عن الاسترسال مع الله على ما يريد ، وإن حاول ما حاول ، إلا إذا فهمنا من هذا أن التوكل هو أن تسلب إرادة الإنسان بحيث لا يصنع شيئا ، ويكل كل شئ من أمره إلى الله ولو فى حسبانه ، فالتوكل هنا بهذه المعانى المختلفة ، أو أن كل هذه التعبيرات فى حقيقة الأمر ليس بينهما فرق حقيقى ، وإنما فرق اعتبارى لم يصرح به أحد منهم .

أما حكمنا فهو أن الإنسان يقتنع فى قرارة نفسه بأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأن الله هو الذى يدبر أمره وإذا كان من ذلك مع ذكر فهو المؤمن الحق الذى قال تعالى فيه : ﴿ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لأن معنى الآية أن المؤمن هو من له هذا الرأى فى نفسه وفى الله .

وللتوكل ثلاث درجات : أولى درجات التوكل تعنى أن للتوكل وثوقا واطمئنانا تاما بالوكيل الحقيقى و " نعم الوكيل " أى الله تعالى ، وأن يسلم ويفوض نفسه إليه .

وثانى درجات التوكل هى التى يكون حال المتوكل فيها بالنسبة لمقام الله كالطفل بالنسبة لأمه ، لأن الطفل لا يعرف أحدا سوى أمه ، ولا يفزع إلى أحد غير أمه ، ولا يطمئن إلى أحد غيرها ، ويلجأ دائما إلى حنانها وعطفها ، وهذا التوكل والتفويض يتحققان بحكم الغريزة الفطرية ، أى أن الطفل فى مواجهة أى مشكلة يفزع إلى أمه ، بينما أنه متوكل فى الدرجة الأولى بحكم شعوره ، ومتجه إلى الله بدافع الاختيار والوثوق والاطمئنان .

وثالث درجات التوكل التى تعد أعلى درجات التوكل ، عبارة عن أن المتوكل يكون باصطلاح الصوفية فى مقابل الوكيل ، كالميت بين يدى الغسال تماما .

ونذكر هنا بعض أقوال مشاهير الصوفية فى التوكل : قال ابراهيم بن الأدهم : " رأيت ذات مرة زاهدا متوكلا ، فسألته من أين تعيش ؟ قال : " ليس لى بهذا علم اسأل الرزاق ، ما شأنى وهذا الأمر " .

وقال أيضا : " اشتريت غلاما ذات يوم فسألته ما اسمك ؟ قال : " بما تسمينى أنت ؟ قلت : " ماذا تريد أن تأكل ؟ قال : " كل ما تطعمنى به " ، قلت : " ماذا تريد أن تلبس ؟ قال : كل ما تلبسنى إياه ". قلت : ماذا

تريد أن تعمل ؟ قال : " ما تأمرني به " ، قلت : فماذا تريد ؟ قال : ما شأن العبد والإرادة ؟ فقلت لنفسى : " يا مسكين هلا كنت فى كل أيام حياتك عبدا لله مثل هذا ؟ فتعلم العبودية اذن فبكيت حتى أغمى على .

قال ابن مسروق : التوكل : الاستسلام لجريان القضاء فى الأحكام ، وقال أبو أيوب : التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكتابة ، وقال بعضهم : " التوكل : سر بين العبد وبين الله " .

قال رجل فى حضرة بشر الحافى : " توكلت على الله " ، قال بشر : " إنك تكذب على الله ، لو كنت متوكلا عليه لرضيت بما يفعله " .

وروى عن بايزيد البسطامى ، أن شيخا كان يصلى خلف إمام ، فقال الامام : " أيها الشيخ ، أنت ليست لك مهنة ولا تسأل شيئا من أحد فمن أين تأكل ؟ قال الشيخ : " اصبر حتى أعيد الصلاة " ، قال : لم ؟ قال : " لايكون جديرا بالصلاة اتيانها خلف رجل لا يعرف الرازق ".

وقال بايزيد أيضا : " التوكل هو تحصيل رزق اليوم ، ونسيان التفكير فىرزق الغد " . قال عبد الله بن المبارك : " من أخذ دانقا من الحرام لايعتبر متوكلا " . وقال أبو سليمان الدارانى : " آخر مرحلة إقدام الزهاد أول مرحلة اقدام المتوكلين " .

قال ذو النون المصرى : " التوكل هو الخروج من طاعة آلهة كثيرة ، والاشتغال بطاعة إله واحد ، والانقطاع عن الأسباب " . وقال : " التوكل هو الإبقاء على صفة العبودية ، والخروج من صفة الألوهية " . وقال أيضا : " كل من لزم القناعة استراح من أهل زمانه وأصبح سيدهم ، وكل من توكل استقام ، وكل من تكلف فى شئ لا يعنيه أضاع كل ما يعنيه " .

وسألوه : " من هو العبد المفوض " قال : " الذى لا ييأس من نفسه وفعله ، ويلجأ إلى الله فى كل أحواله ، ولا تبقى له أى علاقة بغير الله .

وسئل حمدون القصار وهو من كيار الصوفية عن التوكل ، فقال : " التوكل هو الاعتصام بالله تعالى . إنه الاعتصام بالله تعالى فى اتباع أوامره ، وهو الاعتصام بالله تعالى فى اجتناب نواهيه ، وهو الاعتصام بالله تعالى فى الحركة ، وهو الاعتصام بالله فى النتائج ، أى السكون إليه فى كل ذلك ، السكون المصاحب للنضال المتواصل مع السكينة فيما يتعلق بالنتائج .

وقال سهل بن عبد الله التسترى : "التوكل حال الأنبياء ، كل من له فى التوكل حال النبى فقل له لا تترك سنته " ، وقال : " من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان " .

وقال أيضا : " إن أول مقام فى التوكل هو أن تكون ازاء القدرة الإلهية كالميت بين يدى الغسَّال ، حتى يقلبه كيفما شاء ، ولا تكون له أى إرادة و لا أى حركة" ، وقال : " أية المتوكل ثلاث ، ألا يسأل ، وعندما يعطى لا يقبل ، ويدعه إذا لم يتقبله " .

وقال " يمنح أرباب التوكل ثلاثة أشياء : حقيقة اليقين ، والمكاشفة الغيبية ، ومشاهدة قرب الحق تعالى " ، وقال : " التوكل ألا تتهم الله ، أى يعطيك ماقدر لك " ، وقال : " التوكل هو أن تكون ساكنا إذا كان الشئ موجودا وإذا لم يكن يوجد " ، وقال :" التوكل هو للقلب الذى يحيا مع الله بدون أى تعلق بسواه " ، وقال : "إن لكل الأحوال وجها وظهرا إلا التوكل الذى هو وجه كله بلا ظهر .

ومعنى ذلك أن الزهد والتقوى ناشئان عن اجتناب الدنيا والمجاهدة فى مخالفة النفس والهوى ، والعلم والمعرفة فى رؤية الأشياء والعلم بها .

والخوف والرجاء من لطف الله وكبريائه ، والتسليم والتفويض فى المرض والنَصَب ، والرضا بالقضاء والشكر على النعماء والصبر على البلاء والتوكل على الله . فلا جرم أن التوكل كله وجه بلا ظهر ، وإن قال أحد إن الصداقة هى كذلك أيضا " أى توكل على الله " ، نقول " ليست الصداقة مع الله بل هى الصداقة بالله " .

الرضا

ويجئ بعد ذلك مقام الرضا ، والرضا من المقامات السامية للسالكين والأخير منها ، أى لا يوجد وراءه مقام آخر بل هو الرحلة النهائية للرياضيات الأخلاقية ، وتهذيب النفس ، وبمجرد أن يخرج السالك بفضل الكشف والشهود من عالم الشرك الخفى ، يوحد الله بقلبه وروحه ، ويعد الحق تعالى منبعا لكل خير وبركة ، ويعتقد أيضا بأنه قاهر وقادر على كل الأشياء وعالم بحاجة كل الموجودات ، وانه ينبغى ألا يخاف من أى شئ سواه ، كما أنه ينبغى ألا يكون مؤملا فى أى شئ غيره .

ومن المسلم به أن التوكل يقتضى هذه العقيدة ، وكل من كان أكثر استحكاما فى عالم التوحيد ازداد توكلا ، ومتى ما حقق هاتين المقدمتين أى التوحيد والتوكل ، بلغ مقام الرضا لا محالة ورضى بما يصيبه من الله بالضرورة .

وللرضا فى الإيمان ركائز قوية وذلك أن المؤمن من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى حكيم وتصرفاته – سبحانه – تجرى على مقتضى الحكمة ، فإذا ماوصل المؤمن مع ذلك إلى محبة الله تعالى ، فقد أصبح راضيا الرضا كله .

جاء فى تعريف مقام الرضا " أنه مقام شريف " ، قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾(1) ، وقال فى سورة التوبة : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ﴾(2) ، فمعنى ذلك أن رضى الله أكبر وأقدم من رضاهم عنه ، وقال فى سورة الفتح : ﴿ قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(3) .

وقال ابن عطاء رحمه الله : " الرضا نظرالقلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد لأنه يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط " . قال الجنيد : " الرضا ترك الاختيار " ، وقال الحارث المحاسبى : " الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم " ، وقال ذو النون : " الرضا سرور القلب بمر القضاء " ، وقال رويم : " الرضا استقبال الأحكام بالفرح " .

وننظر فى هذه الأقوال فنجد أن الصوفية يُعَرِّفون الرضا بتعريفات تختلف اختلافا اعتباريا لا جوهريا ، فعند الأول : " أن الرضا سكون النفس ومعنى سكون النفس أن صاحب هذه النفس يقنع بما كتب له ولا تنازعه نفسه إلى شئ سواه ، ولا يخطر على باله أمر يتعلق بما كتب له .

وفى تعريف آخر : أنه ترك الاختيار ، وهذا تعبير عن العبودية ، فالعبد إذا أمره مولاه بشئ فلا يسعه أن يكون له الخيار بين عمل شئ آخر ، فكأنه لون من الطاعة ولكن ما الفرق بين الطاعة وبين الرضا ، هناك فرق بين الطاعة والرضا وإن بينهما وجه شبه ، فالطاعة تنفيذ ما تؤمر به وتنهى

---

(1) سورة المائدة : الآية ١١٩ .

(2) سورة التوبة : الآية ٧٢ .

(3) سورة الفتح : الآية ١٨ .

عنه ، دون أن تملك الامتناع عن هذا التنفيذ أو أن يكون لك الخيار بينه وبين شئ آخر ، وقد تطيب بذلك نفسا ، وقد لاتطيب ولكنك ملزم بتنفيذ الأمر أو النهى ، على الوجه الذى ألزمت به ، فأنت لا تملك لنفسك زماما ، وهذا خاص بأمور معينة بعينها فالطاعة خاصة ، أما الرضا فهو طمأنينة النفس وسكونها ، فهى لا تحرك أية حركة بالرضا ، أو بالسخط بل إنها سلبية فى إتصال ودوام ، تلقى الزمام إلى كل ما يصيبها دون أن تمدح ولا أن تقدح ، وهذا مذكرنا بقولة مشهورة وهى تعريف الإيمان ، فالإيمان هو شهادة لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والإيمان بالملائكة والنبيين ، والرضا بقضاء الله خيره وشره فكأن الرضا بقضاء الله خيره وشره هو ما يستحيل فيه الاعتراض على أمر الله ، بل هو القبول المطلق التام لكل ما أصيب العبد به .

وهنا نرى فى الرضا العموم ، والشمول ، وإلقاء القياد على الدوام لله ، وفى هذا ما فيه من تمام معنى العبودية لله ، فإذن ليس كل طاعة رضا ، ولكن كل رضا طاعة ، وهذا الشمول المطلق من الدليل على ثبات الإيمان بالله ، لأن قضاء الله لا يصدر إلا عن الله ، فهو صورة لله فإذا آمنت بالله إيمانا مطلقا ارتضيت قضاءه على وجه مطلق ، وهنا ندرك معنى الرضا .

ولعلنا نذكر ما يتكرر على سمعنا ، ويمر على عيوننا ، وهى كلمة رضى الله عنه ؛ فهذا دعاء بالخير لأهل التقى ، والأولياء ، فرضى الله عن العبد بمعنى محبة الله للعبد ، ويقابلها رضى العبد بكل ما قضى الإله له ، وهنا نذكر الآية التى قلناها فى صدر حديثنا ، وهى ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ ، فهذا كحال الوئام والوفاق بين متحابين متفاهمين .

والرضا بقضاء الله إنما هو نتاج الحب الكامل لله ، ويراد منه استقرار القلب تحت حكم الله ، والإذعان بالتقدير والاعتقاد بأن الله لم يخطئ فى

القسمة ، وكل ما قسم لأحد كان عدلا ، فلهذا لا يحسد ولا يعترض على ما قسمه الله ، بل يعتقد ان كل ما يحدث هو الخير ، ويرضى به حتى يرضى الله عنه .

ويعتقد الصوفية أن المراد بالآية ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ هو الصوفى الكامل الواقع فى مقام الرضا ، حتى إنه لايفتح فاه بالدعاء عند حلول البلاء ، لأن الطلب من الله بتغيير القضاء أمر يخالف الرضا ، فالصوفى بطبيعته متوكل وراض ، أى انه يفكر دائما بالحال ، وليست له علاقة بما مضى كما لا يشغل خاطره بما سيأتى .

وإن التفاؤل ، وانبساط الخاطر ، وانشراح الصدر ، وخلو القلب من الحرص والحسد ، وعلو همة العارفين ، وسمو طباعهم ، كل هذه الصفات التى مَرَّ ذكرها نشأت عن صفة الرضا .

ونلتقط الآن بضع فقرات بشأن الرضا من مقالات أكابر الصوفية ، يقول بشر الحافى : " سألت فضل بن عياض : هل الزهد أفضل أم الرضا ؟ قال : " الرضا أفضل لأن الراضى لا يطلب أى مترلة فوق مترلته " .

يقول صاحب اللمع : " والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل " ، ويقول : " والرضا آخر المقامات ، ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار ، وحقائق الأحوال " .

ويقول ذو النون المصرى : " الرضا بهجة القلب بمرارة القضاء ، وعدم الشعور بالمرارة بعد القضاء وغليان المحبة فى عين البلاء " .

وقال الحارث المحاسبى : " الرضا وكون العبد راضيا هو ألا تطلب من الله الجنة وألا تستغث به من النار " ، وقال : " بلغنا من الرضا إلى حد

أنهم لو وضعوا طبقات النار السبعة فى عينى اليمنى ما يخطر ببالى أن أقول لماذا لم يضعوا شيئا منها فى عينى اليسرى " .

ويقول أحمد خضروبه : " الصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين " . وسألوا يحيى بن معاذ الرازى : " كيف يمكن أن تعرف أن الله تعالى راض عنا أو لا ؟ ، قال : " إذا كنت راضيا فهذا علامة رضا الله عنك " .

ويقول أبو عبد الله محمد بن الخفيف : " الرضا قسمان ، الرضا به والرضا منه ، أما الرضا به فهو التدبير ، وأما الرضا منه فهو فى كل ما يحكم به القضاء " .

والرضا هو آخرالمقامات فكأن الرضا له صفة الختام ، والختام يوحى بأن يكون مقابلا للبدء أو أن يحوى كل ما تقدم ، فكأن الرضا يحمل كل تلك المقامات ، و أولها التوبة ثم الورع ثم الزهد ثم الفقر ثم الصبر ثم التوكل ، فالرضا فى حد ذاته يستغرق كل هذه المقامات ، وفى الإمكان أن نتبين هذه الحقيقة على وجه اليقين ، إذا نظرنا فيما سبق من مقامات ، فالمقام الأول وهو التوبة رغبة فى مرضاة الله فهى رضا ، والصبر كذلك نوع من أنواع الرضا لأنه حبس النفس على المكروه ، فكأنه رضى بهذا المكروه وقبوله ، وإلا لما صبر الصابر عليه ، ولا تسخط منه ، والفقر رضا بالقلة ، والرضا يبدو فيه بالجلاء الأتم ، فالفقر هو أن ترتاح نفسك ، أو أن ترضى بأن تخلو يدك من الشئ ، وقلبك من الرغبة فى الشئ ، فلا شك أن هذا رضا ، والتوكل أيضا تسليم الأمر لله أى الرضا بقضاء الله ، وجملة القول أن الرضا يستغرق معناه كل المقامات ولذلك كان آخرها .

الأحوال

ونتقل إلى مايعرف عند الصوفية اصطلاحا بالأحوال جمع حال ، وحدها فى التعبير الصوفى معنى يرد على الخاطر دون اختيار أو تعمد أو اكتساب أو اجتلاب ، فهى خاطر لا إرادة للصوفى فى اكتساها بما يبذل من الجهد ومشقة الرياضة . وهذا من مثل : الطرب أو الحزن والبسط أو القبض والشوق والانزعاج وأمثالها .

والفرق بين المقام والحال أن المقام يكتسب بطريق المجاهدات والعبادات والرياضات ، وأن الحال يأتى من فيض الله

يقول السيد الشريف الجرجانى فى تعريف كلمة الحال : " الحال فى اللغة نهاية الماضى وبداية المستقبل والحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب ، من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة ، ويزول بظهور صفات النفس ، فإذا دام وصار ملكا يسمى مقاما ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والمقامات تحصل ببذل المجهود .".

وعلى هذا النحو تكون المقامات الصوفية أشبه شئ بمنازل طريق السفر الحسى ، وتكون الأحوال أشبه شئ بما يعرض للمسافر فى سفره من أحداث غير منظورة ، ومغامرات غير متوقعة .

وقسم أبو نصر السراج فى كتاب اللمع مجموع أحوال العارفين على النحو الآتى : المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس ، والاطمئنان ، والمشاهدة ، واليقين ، وها نحن نصف بطريق الإجمال كل حال من هذه الأحوال .

المراقبة

ومن شريف الأحوال حال المراقبة ، وأشرف أحوال المراقبة أن تراقب الله وتسأله أن يرعاك فإنه لا يكل خاصته فى جميع أحوالهم إلى نفوسهم ، ولا إلى أحد . وقال ابن عطاء لبعض حكماء خراسان ممن قد ولع بالجهل وقارن التقشف : " أوَ ما علمت أن ما تقارن ببدنك أقذار فى جنب ما تطالع بقلبك ، ما تطالعه بقلبك هباء فى جنب ما تراقب فى سرك ؟ فراقب الله فى سرك وعلانيتك فإنه خير مما تقارن من عملك وعبادتك .

المراقبة عبارة عن يقين العبد بأن لله مطلع فى جميع الأحوال على قلبه وضميره ومحيط بأسراره الباطنية ، ومن المسلم به أن السالك متيفن بأن الله يراه دائما وأنه عارف ومطلع على زوايا ضميره وأنه يراقب تلك الخواطر غيرالمحمودة التى تمنع القلب من ذكر الله .

وحال المراقبة تذكرنا بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾[1] ، وقال كذلك جل من قائل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[2] ، فهنا هذه هى المراقبة ، وردت هكذا فى قول الله تعالى ، والصوفية كما نعلم يعتمدون فى الأساس والجوهر على ما جاء فى القرآن ثم

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥٢ .

(٢) سورة ق : الآية ١٨ .

يأتى دور الحديث فيروى عنه S قال " اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

فيؤخذ من قوله S أن هذا المؤمن الذى يعبد الله لا يرى الله ولا يحاول شيئا من هذا ولكنه يعبده وقد خطر على باله أن الله يراقبه فتلك المراقبة مجرد فكرة عابرة ترد على الخاطر ، حينما عبد العابد ربه ولكن ليس لها صفة الدوام ولا الثبات لأنها من وحى الخيال وفكرة مجردة ليس إلا ، كما أن هذا العابد المتقى لايسعى إلى هذه المراقبة سعيا ولا يلتمس إليها من سبيل ولكنها هىالتى ترد على خاطره عفوا وقد ترد فى أمسه ولا ترد فى يومه ، فليس لها صفة الدوام ،وقال بعض الصوفية عليكم بحفظ السرائر فإنه مطلع على الضمائر .

ويمكن اعتبار أهل المراقبة على ثلاثة أحوال : وأول حال المراقبة هو أنه بسبب اليقين باطلاع الله على ضمير العبد يتولد فيه حال لا يتطرق إلى قلبه بسببها فكرة خبيثة أو وسوسة شيطانية ، ولأنه يرى الله حاضرا وناظراإليه فى كل مكان فقليلا ما يقع أسيرا لهوى نفسه .

كان للجنيد البغدادى مريد يحبه أكثر من الجميع فحسده الآخرون وأدرك الشيخ ذلك بفراسته ، وقال : " إنه يفوق الجميع أدبا وفهما ونحن مزمعون الامتحان حتى يتبين لكم ذلك " ، فأمر أن يحضروا عشرين طائرا وقال : " فليأخذ كل مريد منكم واحدا ويذبحه فى مكان لا يراه أحد ، واذبحوها وأتوا اهبا ، فذهبوا جميعا وذبحوا وعادوا الا ذلك المريد الذى عاد بطائره حيا ، فسأله الشيخ : لماذا لم تذبحه ؟ قال : " لأن الشيخ كان قد أمر بذبحه فى مكان لا يرانى فيه أحد وكلما ذهبت إلىمكان وجدت الله يرانى " ، قال : "أرأيتم الفرق بين فهمه وفهم الآخرين ؟ فاستغفروا جميعا .

يقول الحارث المحاسبى " المراقبة علم القلب بقرب الحق تعالى " ، والحاصل أن اول حال المراقبة هو كما قال حسن بن على الدامغانى " عليكم بحفظ السرائر فانه مطلع على‌الضمائر " .

والحال الثانى للمراقبة هو أن السالك ينسى الكائنات فى حال المراقبة أى يكون فى حالة يتساوى عنده منها وجود الدنيا وعدمها ، ويستمر فى المراقبة بحيث لا يخطر على باله وذهنه شئ سوى الله . يقول الشبلى " ذهبت إلى النورى فرأيته قد جلس فى حال المراقبة بحيث لا تتحرك شعرة فى بدنه ، قلت له ممن تعلمت هذه المراقبة الجيدة ، قال من القطة التى تقف على جحر الفأر ، وتكون أكثر سكونا منى ، ومقصود النورى من ذلك هو أنه نقل حال مراقبة القطة إلى نفسه كأن هاتفا قال له : أن يا قصير النظر لا تظن أن المطلوب أقل من فأرة فلا تكن فى المراقبة أقل من قطة . ويقول أحمد بن عطاء :" خيركم من راقب الحق بالحق فى فناء ما دون الحق " .

ويقول الشيخ الكبير أبو عبد الله محمد بن الخفيف : " سمعت مرة أن رجلا شيخا و آخر شابا قعدا للمراقبة فى مصر باستمرار ، وذهبت لرؤيتهما فشاهدتهما متجهين ناحية القبلة ، فسلمت عليهما ثلاث مرات فلن يجيبانى ، قلت بالله عليكما ردا على السلام ، فرفع الشاب رأسه وقال : يا بن الخفيف : " الدنيا قليلة ، وقد بقى من هذا القليل قليل ، فخذ نصيبا كبيرا من القليل الباقى منها ، هل أنت يا بن خفيف فى فراغ حتى تبادر بالسلام علينا ؟ قال هذا ونكس رأسه ، وكنت جائعا عطشانا فنسيت الجوع والعطش لاستيلائهما على كيانى ، ومكثت هناك وصليت الظهر معهما ثم العصر ، ثم قلت لهما زودانى بنصيحة ، قالا : " يا بن خفيف نحن من أصحاب المصائب فأنّى لنا لسان النصيحة ، فالأولى وجود شخص آخر

يسديك النصيحة ، فلبثت هناك ثلاثة أيام لم أذق فيها طعاما ولا نوما ، وقلت لنفسى :بأى لفظ أقسم عليهما حتى ينصحانى ، فرفع الشاب رأسه وقال : " اطلب صحبة شخص تذكرك مقابلته بالله وتقع هيبته فى قلبك وينصحك بالفعل لا بالقول .

الحال الثالثة : حال أكابر أرباب المراقبة الذين يراقبون الله ويطلبون منه أن يرعاهم فى حال المراقبة أى أن يتولى الله أمرهم ويجعلهم بفضله مصداقا لقوله ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[1] .

وينبغى أن يكون السالك فى هذا المقام بحيث ينعدم كيانه ولا يبقى بينه وبين لله حجاب ، قالوا للجنيد البغدادى " " انك تقول الحجب ثلاثة : حجاب النفس ، وحجاب الخلق ، وحجاب الدنيا " ، قال : " إن هذه الحجب الثلاثة عامة ، وهناك ثلاثة حجب خاصة هى : مشهد الطاعة ، ومشهد الثواب ومشهد الكرامة" .

والغرض أن السالك ينبغى أن ينسى نفسه فى هذا المقام لينال مقاما آخر ، وبعبارة أخرى ألا يشعر بذاته بمراقبته نفسه بينما يكون بكلية وجوده منغمسا فى المراقبة ، وتكون هذه الحال قد تمكنت من وجوده تماما .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٦ .

القرب

وقد ينشأ عن المراقبة حال القرب وحال الحب ، أما القرب فسبيله الطاعة وصدق العبودية . وفى القرآن آيات جعلها الصوفية أساسا لتحقيقاتهم فى مبحث القرب كالآية : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[1] ، والآية المباركة أيضا : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[2] ، وكذلك ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لا تُبْصِرُونَ ﴾[3]

يقول السيد الشريف الجرجانى فى كتاب التعريفات فى تعريف القرب : " القرب هو القيام بالطاعات والقرب المصطلح عليه هو قرب العبد من الله تعالى بكل ما تعطيه السعادة[4] لا قرب الحق من العبد فإنه من حيث دلالة الآية : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[5] قرب عام أسعيدا كان العبد أم شقيا ، وحاصل هذا أن القرب عبارة عن زوال الحس وتلاشى النفس ، وأن هذا القرب ليس هوالقرب الزمانى أو المكانى .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

(٢) سورة ق : الآبة ١٦ .

(٣) سورة الواقعة : الآية ٨٥ .

(٤) السعادة فى لسان الصوفية هى سعادة العارف ، وبلوغه المقامات المعنوية يوم القيامة ، ونيله النصيب الأوفر فى الفيوضات الربانية ، والتوفيق الإلهى ، وهذا ما يغمر السالك برحمة الله .

(٥) سورة الحديد : الآية ٤ .

ويقول جلال الدين الرومى أن الخلق فى النار جياع يتأوهون ويلتمسون من الحق أن يمن عليهم بالرزق وأن يبعث به إليهم ، وأن قرب الله من الانسان هو مثل قرب الروح والعقل منه اذ لا يشعر بهما لفرط قربهما منه .

وحال القرب لعبد شاهد بقلبه قرب الله منه فتقرب إلى الله تعالى بطاعته وجميع همه بين الله تعالى بدوام ذكره فى علانيته وسره ، فكأن القرب هى أن يشعر العبد أو أن يمر بباله أو أن يرى بعين قلبه أن الله قريب منه فهو إذا شعر بذلك بادر إلى أن يتقرب بدوره من الله وذلك بطاعته والإئتمار بما أمر به والإنتهاء بما نهى فكأن حال القرب يترتب عليها تقوى الله .

ومن هؤلاء المقربين بأنواع الطاعات من يتقربون إلى الله لعلمهم بعلم الله بهم وقربه منهم وقدرته عليهم ، هؤلاء يتقربون إلى الله بالطاعات بأن الله قريب منهم ، فهو مطلع على ما يعلمون أى إنه قادر على أن يثيبهم وأن يأخذهم بالعقاب ، ومنهم من قال ما نظرت إلى شئ إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه منى فهذا متقدم خطوة عن الأول لأن الأول يوقن بأن الله منه قريب فهو يراه فى حركاته وسكناته وعليه فهو يحاسبه ويعاقبه فهو يعمل لذلك حسابا .

أما الثانى فهو لا يطمع فى ثواب ، ولا يخاف من عقاب ، وإنما يرى الله ملء هذا الكون قريب من كل شئ ، فهو إذا وقع تحت حسه أن أى شئ من الأشياء قريب منه ، سرعان مايذكر أن الله أقرب إليه منه ، فهو أعظم منه ، وهو يملأ كل حيز فى هذا الكون ، فكأنه يذكرنا بنظرية وحدة الوجود .

ومن هؤلاء وهم العظماء والكبراء وأهل النهايات ، قال أحد الصوفية لرجل دخل عليه فقال : " من أين أنت ؟ " ، فقال : " من بغداد " قال : " من صحبت بها " ، قال : " أبا حمزة " ، قال : " إذا رجعت لبغداد فقل لأبى حمزة قرب القرب فى معنى مانشير إليه بعد البعد " ، فكأن الله وهو بعيد عنا هو فى عين الحال قريب قريب منا ، فهذا البعد هو القرب ، فالله هو قريب من هؤلاء لبعده عنهم ، فكأنهم يعدون هذا البعد قربا وقال غيره مادام العبد يكون بالقرب ، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب يغنى عن رؤية قربه من الله ، بقرب الله منه .

فكل هذا من كلام الصوفية ، ورغبة مؤلفهم فى تقسيمهم إلى طبقات ودرجات ، أى أن الصوفية ليسوا سواء فى درجات تصوفهم ، فمنهم المبتدئ ، ومنهم المنتهى ،وما إلى ذلك ، وهذا مألوف عند المؤلفين فى التصوف ؛ لأنهم يميلون إلى التفريع وإلى التقسيم ، بحيث يجعلون للتصوف كيانا ، هو أشبه ما يكون بكفاية العلم الذى فيه مراحل للمعرفة ، وليس كالعلماء على حظ واحد من العلم ، بل هم يتفاوتون .

وقال أبو نصر السراج فى كتاب اللمع فى مبحث حال القرب : "وحال القرب من أحوال عبد يشهد بقلبه القرب من الله ويتقرب فى الظاهر والباطن إلى الله عن طريق الاستمرار فى ذكر الله بالطاعة وجمع الهمة . وأهل القرب على ثلاثة أحوال :

أولا : المتقربون إلى الله بأنواع الطاعات لأنهم يعرفون أن الله عالم وقريب منهم وقادر عليهم .

ثانيا : المتحققون الذين إذا ما رأوا شيئا رأوا الله أقرب إلى ذلك الشئ منهم .

ثالثا : الأكابر وأهل النهاية وهم الذين لابد أن يجتازوا مرحلة المبتدأين ويفنوا بحيث لا يشعرون بقربهم أى ان حال القرب ذاتها تنسى وأن العبد لا يعرف أنه فى حال القرب لذهوله .

المحبة

أما المحبة فسبيلها الأنس بالنعم الإلهية ، والعشق أو المحبة من أسمى صفات العارف ، وأهم أحواله ، ومن الأصول المهمة فى مبانى التصوف . وكما أن الديانة المسيحية استحالت إلى مذهب العشق والمحبة بعد امتزاجها بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فكذلك التصوف — بعد اجتيازه مراحل مختلفة واختلاطه بالأفكار والآراء المتنوعة وتاثره الناشئ من مصادر متعددة — بلغ الغاية القصوى لمذهب العشق والمحبة .

والصوفية يشترطون فى الحب أن يتصل بأدب النفس ، فمن المحبة الاستراحة إلى علم الله وحده بجمال المحب ، وإخلاص المعاملة لوجهه ، وحسن الأدب فيها ، وكتم ما يحكم به من الضيق والشدائد ، وإظهار ما ينعم به من الألطاف والفوائد ، وكثرة التفكر فى نعمائه ، وخفى ألطافه وغرائب صنعه ، وعجائب قدرته ، وحسن الثناء عليه فى كل حال ، والصبر على بلائه ، لأن المحب قد صار من أهله وأوليائه .

والمحبوب قد يعنف بأحبائه لتمكنه منهم ، ومكانتهم عنده ، لعلمه أنهم لا يريدون له بدلا ، ولا يبغون عنه حِوَلا ، إذ ليست لهم راحة لسواه ، ولا هم لهم إلا فيه ، كما قال بعض المحبين : " ويلى منك ، وويلى عنك ، أفزع منك وأشتاق إليك ، إن طلبتنى أتعبتنى ، وإن هربت منك طلبتنى ، فليس لى معك راحة ، ولا لى فى غيرك استراحة " .

وأعظم العوامل التى أرست التصوف على قاعدة العشق والمحبة ، إنما هو الاعتقاد بوحدة الوجود ، ذلك لأن الصوفى بمجرد اعتقاده بأن الله حقيقة يسرى وجوده فى كل الأشياء ، وأن كل ما سوى الله باطل ، لا يرى شيئا الا الله ، ويبدى الحب والعشق لكل شئ ، ويكون مسلكه ومذهبه السلام العام والعطف على الموجودات كافة .

والعشق من جملة الأحوال أى انه هو ذاته من المواهب الإلهية ، وليس من المكاسب البشرية ، وكما أن حصول العشق والاستنارة بنور المحبة يعتبران موهبة سماوية فإنه إذا بذلت كل الكائنات الجهد لإطفاء جذوة العشق الحقيقى لعجزت عن ذلك جميعا .

ويرى المتصوف أن العشق هو أكبر سر ورمز إلهى وان كل مذهب ومسلك حقيقى وليد العشق ، وبقوة حاذبية العشق يتحرر المتصوف من قيد الوجود ويتصل ببحر الفقر والفناء ، أى أنه ينغمر فى عالم الوصال ، وكما يقول الجامى : " لا يوجد فى عالم الوجود شئ سوى العشق " ، أى أن الوجود كما يراه الصوفى هو العشق فقط ليس إلا وكيف ينكر العشق وما فى الوجود إلا هو ، أى انه كيف ينكر العشق وليس فى الوجود سواه " .

يقول الله تعالى فى حيث قدسى :" من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه " .

وفى هذا الحديث الشريف يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه وأول خطوة فى هذا الطريق أداء العبد للفرائض ، والحب دون أداء الفرائض زيف

وكذب ، ومع أداء الفرائض الإكثار من النوافل ، فإذا أكثر من النوافل ، أحبه الله تعالى : ويترتب على حب الله تعالى هذا الخير الكثير ، الذى ذكره الله تعالى فى الحديث القدسى .

ويربط أسلافنا رضوان الله عليهم ربطا محكما بين محبة الله تعالى ، واتباع رسول الله S متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ﴾[1] فمن صدق المحبة : اتباع الرسول S ، فى هديه وزهده ، وأخلاقه ، والتأسى به فى الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها .

أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالى يقول : " وقد جعل رسول الله S – الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقلى : يارسول الله ! ما الإيمان ؟ قال : " أن يكون الله وسوله أحب إليك مما سواهما " وفى حديث آخر : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " ، وفى حديث آخر : " لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله ، وماله ، والناس أجمعين " .

كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[2] .

يقول أبو نصر السراج فى كتاب اللمع بعد ان يذكر آيات من القرآن الكريم مثل الآية المباركة ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٤ .

وَيُحِبُّونَهُ﴾[1] ، و﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ ﴾[2] ، إن أحوال أهل المحبة ثلاثة : الحال الأولى : محبة العامة التى تبرز من إحسان الله إلى العبد ؛ لأن قلب الإنسان مجبول على حب من يحسن إليه ، وشرط هذه الحال من المحبة كما يقول سمنون " صفاء الود مع دوام الذكر لأنه من أحب شيئا أكثر من ذكره ".

الحال الثانية : محبة الصادقين والمتحققين التى هى وليدة نظر القلب بالاستغناء ، والجلال ، والعظمة ، والعلم ، والقدرة الإلهية ، ويقول أيضا ابراهيم الخواص : " المحبة هى محو الإرادة واحتراق جملة الصفات البشرية وحاجاتها " .

الحال الثالثة : محبة الصديقين والعارفين التى هى نتيجة النظر الطاهر ، والمعرفة الكاملة بأن الله تعالى يحبهم بدون أى سبب أو علة ، بل بمحض فضل الرحمة فقط ، وهم كذلك أيضا يحبون الله بدون علة ، كما قال أبو يعقوب موسى : " حتى تشهد المحبة محبته أى إذا كان واقفا وعالما بالمحبة فى نفسه فمحبته ليست بصحيحة ، وتكون المحبة صحيحة عندما لا يبقى شئ سوى المحبوب وينمحى العلم بالمحبة ،

وقد قال الجنيد البغدادى فى هذا المعنى : " المحبة هى أن تحل صفات المحبوب محل صفات المحب ، ويكون المحب مصداقا لهذا الكلام ، حتى أحبه " . وقال أيضا : " المحبة لا تدوم الا بين اثنين يقول أحدهما للآخر يا أنا " .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

وكل من له معرفة بأشعار التصوف العربية والتركية بصورة خاصة ، يعلم أن مسألة ميل الروح إلى الله التى هى من أهم المسائل الصوفية الهامة تقريبا ، جاءت دائما بنفس الألفاظ والتعبيرات والاصطلاحات المتداولة بين العاشق والمعشوق العاديين ، فنرى أحيانا أن الشعراء المتصوفة ولا سيما ناظمو الغزل قد استخدموا هذه العبارات الرمزية ناظرين إلى الصناعة الأدبية ، وقد جعلوا القارئ لا يستطيع أن يميز غالبا بين العشق الصورى والعشق الحقيقى .

وخلاصة مايعتقده الصوفى فى مسألة المحبة والعشق ، هو أن العشق غريزة الهية والهام سماوى ، يستطيع بواسطتهما أن يعرف الانسان نفسه ويعلم مصيره ، إن الروح صادرة عن الله ، وكانت فى الله قبل خلق الدنيا ، وبعد نعلقها بالبدن أصبحت فى حكم الغريب المغترب عن دياره وموطنه ، الذى يفكر دائما فى مقره الأصلى ومقامه الحقيقى .

وهذا الموضوع نراه واضحا فى كافة القصص الصوفية كقصة ليلى والمجنون ويوسف وزليخا ووامق وعذرا وفرهاد وشيرين وسلامان وأبسال وأمثالها التى عبر عنها الشعراء بأشكال متنوعة بحسب أذواقهم ورغباتهم وحالاتهم الأدبية والفنية وقد استعملوا من أجلها آلاف التعابير ، مثل : الوردة والبلبل والشمعة والفراشة وغير ذلك .

والآن لكى نكون أكثر إحاطة بمفهوم العشق والمحبة عند المتصوفة ، نورد هنا بعض أقوال كبار المتصوفة فى هذا الشأن ، يروى عن ذى النون المصرى أنه دخل عليه أصحابه ذات يوم فرأوه يبكى فسألوه عن سبب بكائه قال : " غلبت عينى سنة من النوم فى أثناء السجود فرأيت الله يقول : يا أبا الفيض ، خلقت الخلق فانقسموا إلى عشرة أجزاء ، وعرضت عليهم الدنيا

فمال تسعة من هؤلاء الأجزاء العشرة إلى الدنيا وبقى جزء واحد ، فانقسم ذلك الجزء إلى عشرة أجزاء أيضا فعرضت عليهم الجنة فاتجه تسعة أجزاء منهم إلى الجنة وانقسم ذاك الجزء إلى عشرة أجزاء أيضا ، فأحضرت إليهم الجحيم فجفلوا جميعا وتفرقوا خوفا منها وبقى جزء واحد لم ينخدع بالدنيا ولا رغب فى الجنة و لم يخش النار ، قلت : يا عبادى : إنكم لم تلتفتوا إلى الدنيا و لم تخشوا النار فماذا تطلبون ؟ فرفعوا رؤوسهم جميعا وقالوا : أنت تعلم ما نريد " .

وذهب ذو النون أيضا إلى أخ من أولئك القوم الذين ذكروا بالمحبة فوجده واقعا فى محنة فقال له : " من أحس بألم من الحق لا يحب الحق " ، قال ذو النون : " ولكنى أقول إن الله لا يحب من شهر نفسه بمحبته " ، فقال ذاك الرجل : " استغفر الله وأتوب إليه " .

قال بايزيد البسطامى : " كمال درجة العارف احتراقه بالمحبة " ، وقال أيضا : " العابد بالحقيقة العامل بالصدق هو الذى يقطع رأس المرادات كلها بالجهد ، وتتضاءل شهواته جميعها حيال محبة الله ، ويحب ما يريد الحق ، ويطلب ما كان الحق شاهده " ، وقال أيضا : " ظننت أنى أحبه فنظرت فإذا بمحبته قد سبقتنى " ، وقال أيضا : " حملوا قلبى إلى السماء فطاف حول جميع الملكوت ثم عاد فقلت : " ماذا أحضرت ؟ قال : " الحب والرضا فإن كليهما كانا ملكين " ، وقال أيضا : " إلهى ليس بعجيب أن أحبك وأنا العبد العاجز الضعيف المحتاج ، بل العجيب أن تحبنى أنت وأنت الرب والمليك الغنى ".

وقال معروف الكرخى : " ليست المحبة من تعليم الخلق بل إنما هى موهبة من الحق ومن فضله " . وسألوا يحيى بن معاذ الرازى : " ما آية المحبة ؟

قال : " هى ألا تزداد بالحسنى ، ولا تنقص بالجفوة " ، وسألوا أحمد بن عاصم الأنطاكى : " ما علامة المحبة ؟ قال : " ذاك الذى عبادته قليلة وذكره دائم وخلوته كثيرة وصمته متصل ، ولا يرى من ينظرون إليه ، ولا يسمع من يناديه ، ولا يغتم لو أصيب بمصيبة ، ولا يفرح لما يناله ، ولا يخشى أحدا ولا يأمل فى أحد " .

وقال الجنيد البغدادى : " لا تتوثق المحبة بين اثنين إلا إذا قال أحدهما للآخر يا من أنت أنا " ، وقال : " المحبة هى إفراط الميل بلا نيل " ، وقال : " لا يمكن الوصول إلى الله بمحبة الله ما لم تضح بروحك فى سبيله " . وقال : " المحبة هى أن تتمكن صفات المحبوب من قلب المحب " ، قال رسول الله S : " فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا " .

ويقول الشيخ العطار فى شرح حال عمرو بن عثمان المكى الذى كتب كتابا فى المحبة أنه قال : " المحبة داخلة فى الرضا ، وكذلك الرضا فى المحبة ، لأنك لا تحب إلا من رضيت عنه ، ولا ترضى إلا عمن تحب " .

وكذلك كتب الشيخ العطار فى شرح حال أبى حسين النورى يقول : " روى أنه عندما قام غلام الخليل بمخاصمة هذه الطائفة ، وقال فى حضرة الخليفة انه ظهرت جماعة يغنون الأناشيد ، ويقومون بالرقص ، ويتكلمون بالكفر ، ويتنزهون طول النهار ، ويدخلون خفية فى السراديب ويتكلمون ، وانهم قوم من الزنادقة ، فلو أمر أمير المؤمنين بقتلهم لانمحى بقتلهم مذهب الزنادقة ، فإن هؤلاء هم رأس هذه الطائفة ، وإذا وافق أمير المؤمنين على ذلك فإنى ضامن له ثوابا جميلا ، فأمر الخليفة بإحضارهم فى الحال ، وإذا هم أبو حمزة والأرقم والشبلى والنورى والجنيد ، فأمر الخليفة بقتلهم ، فاتجه السياف لقتل الأرقم فوثب النورى وقعد فى مكان الأرقم

وقدم نفسه عن صدق وجلس فى مكانه وقال طربا ضاحكا : اقتلنى أولا ، فقال السياف : لم يأت وقتك يا فتى وليس السيف شيئا يستحق الاستعجال قال النورى إن طريقتى مبنية على الإيثار ، وأنا أوثر الأصحاب على نفسى ، وأعز الأشياء فى الدنيا الحياة ، وأحب أن أقدم هذه الأنفاس المعدودة ، لأصحابى حتى أكون قد آثرت بالعمر ، برغم أن نفسا واحدا فى الدنيا أحب إلى من ألف سنة فى الآخرة ، لأن هذه دار الخدمة ،وتلك هى دار القربى ، وإن قربتى تكون بالخدمة فلما سمعوا منه هذا الكلام أخبروا به الخليفة فتعجب من إخلاصه وصدق اقدامه .

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم مايقوله يحيى بن معاذ : " إلهى إنى مقيم بفنائك ، مشغول بشنائك ، صغيرا أخذتنى إليك ، وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال : سترا وتوبة ، وزهدا ، وشوقا ، ورضا ، وحبا ....تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك . ملازما لأمرك ، ومشغوفا بقولك ، ولما طرَّ شاربى ، ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا ؟ وقد اعتدت هذا منك صغيرا ، فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب ، وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف " .

وسمنون المحب من معاصرى الجنيد البغدادى وأبى الحسين النورى وأقرانهما ، وكما يدل تلقبه بالمحب كانت له فى المحبة طريقة خاصة ، أى إنه خلاف غالب أكابر الصوفية الذين كانوا يقدمون المعرفة فى التصوف على كل شئ من جملة ذلك المحبة ، وكان يرى أن المحبة أصل المذهب وقاعدة التصوف ويعد جميع الأحوال ولمقامات بالنسبة للمحبة أشياء غير ذات بال .

وخلاصة القول أن العارف يرى أنه ليست هناك عقيدة أعلى وأقوم من المحبة والعشق ، وأن العشق أساس لكل حقيقة ، والعارف الحيقى يحب العشق بتجلياته كافة ، ويعد التضحية بالنفس ، والايثار ، وطهارة القلب ، والشجاعة ، والإيمان ، وترك هوى النفس ، والزهد فى الدنيا ، وألوف الفضائل الأخرى ، يعد كل هذا نتيجة للعشق والمحبة .

وبعد : فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّه ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] .

---

(١) سورة يونس : الآية ٦٤ .

الخوف

يعتقد الصوفية أن الخوف والرجاء فى حكم جناحى السالك يستطيع بمعونتهما أن يطير فى فضاء التقرب إلى الله . الخوف هو خشية حدوث أمر مكروه غير محمود أو فقدان أمر مستحسن محمود ، ومعنى ذلك أن الإنسان إما ان يخاف أن يحدث شئ يسوؤه وإما أن يخاف أن يفقد شيئا يعتز به ، والرجاء هو تعلق القلب بحصول أمر محبوب فى المستقبل ، والخوف وليد علم السالك ومعرفته ، فى حين أن الرجاء وليد لحالة محبته .

كلما إزداد السالك معرفة بالله ازداد خوفه من الله ، لأن حال الخوف متولدة من المعرفة ، ومن المسلم به أن الخوف من المعانى وأنه متعلق بالمستقبل ، لأنه من الواضح أن الخوف إما خشية حدوث مكروه وإما خوف فوات شئ محبوب ، وفى كلتا الحالتين مرجعهما إلى شئ يمكن حدوثه فى المستقبل .

وحاصل رأى الصوفية فى موضوع حال الخوف هو أن الخوف نتيجة علم السالك ومعرفته وفى القرآن يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾[1] ، ويقول النبى S : " رأس الحكمة مخافة الله " ويقول الغزالى : " اعلم أول مقامات الدين إنما هو اليقين والمعرفة "، ويتولد عن المعرفة الخوف ، ويتولد عن الخوف الزهد والصبر والتوبة ، ومن الزهد والتوبة ينشأ

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

الصدق والاخلاص والمواظبة على الذكر والتفكر على الدوام . ومنها يتولد الأنس والمحبة ، وهذه نهاية المقامات ، أما الرضا والتفويض والشوق فمن توابع المحبة ، فاكسير السعادة بعد اليقين والمعرفة إنما هو الخوف وكل ما كان بعده لا يستقيم بدونه .

والخوف عند العلماء على غير ما يتصور فى أوهام العامة ، وخلاف ما يعدونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج ، وإنما الخوف اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة ، فإن اعطى عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمى هذا خائفا ، ولذلك كان النبى S من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم ، ومن أشدهم حبا لله تعالى .

ومع أن الصوفية يوصون بالرجاء ، فهم أيضا يوصون بالخوف ، ويرون أن المحب لا يسقى كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ، ولكن خوفه على قدر قربه والخوف نوعان : خوف العموم وهو أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان ، وأن يحفظ بطنه وما وعاه وهو القلب والفرج واليد والرجل ، فأما خوف الخصوص فهو أن لا يجمع ما لا يأكل ، ولا يبنى ما لا يسكن ، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل ، وهذا هو الزهد .

الرجاء

وهناك مقام الرجاء ، والرجاء من أوصاف المؤمنين ولا يصح الإيمان إلا به ، كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف ، فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطائر ، وهو لا يطير إلا بجناحيه ، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه ، وهو ايضا مقام من حسن الظن بالله تعالى وجميل التأميل له ، وقد أوصى به الرسول S فقال : " لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى لأنه قال : " أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما يشاء " .

كل من يتوقع الحسنى فى المستقبل يعتبر راجيا مؤملا ، يقول أبو نصر السراج : " الرجاء على ثلاثة أقسام : رجاء فى الله ، ورجاء فى سعة رحمة الله ورجاء فى ثواب الله ، فالرجاء فى ثواب الله وفى سعة رحمته لعبد مريد قد علم أن الكرم والفضل والجود من صفات الله فارتاح قلبه إلى المرجو من كرمه وفضله " أما رجاء العارف الواصل فهو الرجاء فى الله ، كما يقول الشيخ السعدى : " اليأس من الأحوال المذمومة جدا والرجاء المقترن بالخوف يرشدان السالك إلى طريق الاعتدال " .

وللصوفية كلام كثير فى الرجاء ، واهتمامهم به هو أيضا من دعائم الأخلاق . والآن نورد بعض أقوال أكابر الصوفية فى موضوع الخوف والرجاء حتى يزداد الأمر وضوحا . قال شفيق البلخى : " أصل الطاعة هو الخوف والرجاء والمحبة وعلامة الخوف ترك المحارم ، وعلامة الرجاء دوام

الطاعة ، وعلامة المحبة الشوق والانابة اللازمة . كل من لم يكن لديه هذه الأشياء الثلاثة لا ينجو من النار ، وهى : الأمن ، والخوف ، والاضطراب . العبد الخائف هو الذى يخاف على ما مضى من حياته ويقول فى نفسه كيف انتهت ؟ ويخاف من أنه لا يعرف ماذا سيكون بعد هذا .

قال الحارث المحاسبى : الخوف هو عدم قيام العبد بعمل ولو لمرة واحدة لظنه بأنه يسأل فى الآخرة عن ذلك العمل .

وقال أبو سليمان الدارانى : " أصل كل الأشياء فى الدنيا والآخرة هو الخوف من الحق تعالى ، فمتى ما غلب الرجاء على الخوف فسد القلب ، وإذا ما كان الخوف دائما فى القلب ظهر الخشوع فى القلب ، وإذا لم يظهر الخشوع ومر الخوف حينا بعد حين بالقلب فلا يحصل الخشوع فى القلب أبدا .

وقال لا يبتعد الخوف من قلب قط ما لم يفسد ذلك القلب ، وقال يوما لأحمد الحوارى : " إذا ما رأيت الناس يعملون بالرجاء فاعمل أنت بالخوف ما استطعت إلى ذلك سبيلا " . قال لقمان لأبنه : " اخش الله خشية لا تقنط معها من رحمته وارج الله رجاء لا تكون معه آمنا من مكره " . وقال سهل بن عبد الله التسترى : " الخوف ذكر والرجاء أنثى ووليدهما الإيمان " وقال : " أى قلب يتمكن فيه الكبر لا يستقر فيه الخوف والرجاء " .

وقال : " الخوف هو الابتعاد عن المنهيات ، والرجاء الاسراع بأداء الأوامر ، وعلم الرجاء لا يصح إلا للخائف " ، وقال : " إن أعلى مراتب الخوف هى أن يكون العبد خائفا فيما مر بعلم الله بشأنه " . وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى حين سألوه ما الخوف والرجاء وما علامتهما ؟ : " علامة

الخوف الهرب ، وعلامة الرجاء الطلب ، فكل من له رجاء وليس له طلب كذاب ، وكل من له خوف وليس له هرب كذاب أيضا " . وقال : " انى وجدت أقرب الخلق إلى النجاة من هو أشدهم خوفا على نفسه من عدم النجاة ، وأقرب الخلق إلى الهلاك من كان آمنهم على نفسه " ، قال عبد الله بن خبيق : " إن أنفع المخاوف ما يردعك عن المعصية ، وأنفع الرجاء ما يدفعك إلى العمل " . وقال الرجاء ثلاثة أقسام : رجل يعمل بالخير ويرجو قبوله ، وآخر يرتكب ذنبا ثم يتوب ويرجو الغفران ، والثالث من له رجاء كاذب فهو يرتكب المعاصى دائما ويرجو من الله المغفرة " .

الشوق

ويتصل بحال الحب حال الشوق ، وقد روى عنه عليه السلام أنه كان يقول فى دعائه : " أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك " . والعارف المجذوب بمحبة الله لابد أن له شوقا إلى الله ، لأن الشوق نوع من الطلب الشديد والهيجان القلبى للوصول إلى المحبوب . وسئل بعضهم عن الشوق فقال : " هيمان القلب عند ذكر المحبوب ، وقال آخر : الشوق نار الله تعالى أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات .

وأهل الشوق فى الشوق على ثلاثة أحوال ، فمنهم من اشتاق إلى ما وعد الله تعالى لأوليائه فى الثواب والكرامة والفضل والرضوان ، ومنهم من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته ، وتبرمه ببقائه شوقا إلى لقائه ، ومنهم من شاهد فى قرب سيده أنه حاضر لا يغيب ، فتنعم قلبه بذكره وقال إنما يشتاق إلى غائب وهو حاضر لا يغيب .

ونذكر الآن بعض أقوال المشاهير بشأن الشوق ، يقول السيد الشريف الجرجانى فى تعريف الشوق : " الشوق نزوع القلب فى لقاء المحبوب " ، ويقول أبو نصر السراج : " يروى عن النبى S أنه كان يدعو قائلا : " أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك " ، قال يحيى بن معاذ الرازى : " علامة الشوق هى أن تصون الجوارح عن الشهوات ،

وعلامة الشوق إلى الله حب الحياة مع الراحة معا ، أى إذا كانت الحياة من غير تعب محرق يزداد الشوق وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى : " سأله أحدهم : هل أنت مشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال : لماذا ؟ قال : لأن الشوق للغائب ، فإذا كان الغائب حاضرا فأنَّى يكون الشوق ؟

وقال أبو عثمان الحيرى : الشوق ثمرة المحبة ، وكل من أحب الله يرجو الله ويشتاق لرؤيته . وقال بقدر ما يقع فى قلب العبد من سرور بالله يكون الشوق إليه ، وقال بن عطاء : إن حياة المحب بالبذل ، وحياة المشتاق بالشك ، وحياة العارف بالذكر ، وحياة الموحد باللسان ، وقال أيضا حين سألوه عن الشوق : " إنه احتراق القلب ، وانشقاق الكبد والتهابها . قالوا : الشوق أفضل أم المحبة ؟ قال : المحبة لأن الشوق وليدها .

وقال يوسف بن أسباط : " لا يمحو الشهوات عن القلب سوى الخوف الذى يهيب بالمرء من غير إرادة أو شوق يجعله قلقا ، وقال أيضا : " للشوق علامة هى حب المرء وقت الراحة فى الدنيا ، وطرب النفس عند التفكر ولا سيما فى الساعة التى يكون متجها فيها إلى الحق " ، وابراهيم الخواص كان يدق على صدره ويقول : " واشوقاه لمن رآنى ولم أره " . وكان الشبلى يقول : " الهيبة تصهر القلوب والمحبة تصهر الأمواج ، والشوق يصهر النفوس " .

وقال الشيخ أبو الحسن الصائغ : " ينعم أهل المحبة على نار الشوق التى لهم مع المحبوب ويفوق نعيمهم نعيم أهل الجنة " ،

الأنس

أما حال الأنس فلا يمكن التعبير عنه بأكثر من قول الطوسى : " معنى الأنس بالله الاعتماد عليه والسكون إليه والاستعانة به ومن شواهده ما روى أن مطرف بن عبد الله كتب إلى عمر بن عبد العزيز : " ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله تعالى عبادا استأنسوا بالله فكانوا فى وحدهم أشد استئناسا من الناس فى كثرهم .

وأهل الأنس فى الأنس ثلاثة أحوال ، فمنهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة ، وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب : ويفسر هذا قول سهل بن عبد الله : " أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصا فيأنس العبد بالله ، أى يسكن إليه . والحال الثانى أن يأنس العبد بالله ويستوحش مما سواه من العوارض والخواطر الشاغلة ، ويفسره قول ذى النون وقد قيل له ما علامة الأنس ؟ فقال : " إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه هو ذا يوحشك من نفسه ، وإذا رأيته يوحشك من خلقه فهو ذا يؤنسك بنفسه . والحال الثالث هو الذهاب عن رؤية الانس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس .

ونذكر الآن بعض أقوال المشاهير بشأن الأنس ، قال الحارث المحاسبى " علامة الأنس بالحق هى الوحشة من الخلق ، والهرب من كل ما يحيط

بالخلق ، والانفراد بحلاوة ذكر الحق تعالى ، كلما يتمكن الأنس بالحق يزول الأنس بالمخلوقات من القلب . " ، وقال سهل بن عبد الله التسترى حين سألوه عن الأنس : " الأنس هو ائتناس الأجسام بالعقل ، وائتناس العقل بالعلم ، وائتناس العلم بالعبد ، وائتناس العبد بالله " ، وقال يوسف بن الحسين : " وآية معرفة الأنس هى أن يكون المستأنس بعيدا عن كل ما يقطع ذكر الحبيب " .

وقال الجنيد البغدادى : " يقول أهل الأنس فى الخلوة أشياء تتراءى للعامة كفرا ، فلو سمعهم العوام لقالوا بكفرهم ، وهم يتلقون المزيد فى أحوالهم على ذلك ويحتملون كل ما يقال لهم وجدير بهم ذلك " . وقال أبو عثمان الحيرى : " كل من لم يذق وحشة الغفلة لن يذوق لذة الأنس " . وقال أبو محمد رويم : " الأنس هو احساسك بالوحشة مما سوى الله ومن نفسك ". وقال أيضا : " الأنس سرور القلب بلذة الخطاب " ، وقال أيضا : " الأنس هو الخلوة عن غير الله " .

وقال ابن عطاء : " للمعرفة ثلاثة أركان : الهيبة ، والحياء ، والأنس " . وقال أبو بكر الوراق : " ما لم تنقطع عن المخلوق وتستوحش منه فلا تطمع فى أنس الحق ، وما دام قلبك مشغولا فلا تطمع بالفكرة والعبرة ، وما لم تمح عن صدرك طمع الرياسة والسيادة فلا تطمع فى الإلهام والحكمة " ، وقال أحمد المسروق : لقد " كويت الدنيا بالوحشة حتى يكون أنس المطيعين بالله لا بالدنيا " . وسألوا الشبلى : " ما الأنس ؟ قال : " الأنس هو وحشتك من نفسك " . وقال أيضا : " الأنس بالناس إفلاس ، وحركة اللسان بغير ذكر الله وسواس " .

وقال الشيخ أبو عثمان المغربى : " كل من كان مؤتنسا بمعرفة الله ومحبته لن يضره فوات هذا الأنس ، بل تزداد أسباب الأنس والراحة بحيث تزول عوامل التشتت والاضطراب عن وجهه وتبقى المحبة الخالصة " .

الاطمئنان

والأنس بالله يقتضى الطمأنينة ، والطمأنينة تعنى سكون القلب وراحته ، وهى " حال رفيع " ولا تكون إلا لعبد رجح عقله ، وقوى إيمانه ، ورسخ علمه ، وصفا ذكره ، وثبتت حقيقته ، وهذا لا يكون إلا فى نهاية الطريق وقد وردت فى القرآن آيات بشأن اطمئنان القلب من جملتها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾(٢) . وكذلك فى قصة حضرة ابراهيم الخليل إذ قال ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾(٣) .

وليس من شك فى أن الصوفية يعانون فى بداية طريقهم صراعا نفسيا يصاحبه الحزن والقلق أما فى النهاية فهم يتحققون بهدوء القلب نتيجة لاستقرار الإيمان بالله فيه وأنه مرجع الكل ، ومصدر كل نعمة ، ومنتهى كل أمل ، وبذلك يصدق توكلهم عليه وحده ، فالمعرفة الحقيقية بالله يصاحبها اطمئنان كامل ، أو فرح حقيقى ، أو سعادة غامرة .

---

(١) سورة الفجر : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

والاطمئنان وهدوء القلب ثمرة للإيمان الكامل الإيمان بأن الله واحد وأن مرجع الكل إليه وله جميع صفات الكمال فى علم وقدرة ورحمة وعناية وشفقة وحكمة وأمثالها ، وهو الخالق الأوحد وكل ما خلقه يجب أن يكون كما هو وليس فى عالم الامكان أبدع مما كان ، وكل شئ فى مكانه بديع وإن كانت حكمته مخفية على العبد .

والاطمئنان هو : حالة اعتماد القلب على الوكيل أى الله الذى هو نعم المولى ونعم الوكيل ، اعتمادا على أنه جدير بفضل الله وكرمه ، كما انه سيصل إليه ما هو خير له ، وما هو مطابق للحكمة الإلهية ، واذا ما بلغ العبد هذا المقام يحصل له الاعتماد التام ويستريح قلبه وتطمئن نفسه .

وقد بين لنا الطوسى فى اللمع فى باب خاص عقده عن حال الطمأنينة ، أن الطمأنينة على ثلاثة أقسام :

الأول : للعامة الذين إذا ذكروا الله اطمأنوا إلى ذكرهم له ، فحظهم منه الإجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات ، وهو ما قاله الله تعالى : ﴿ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ، أى المطمئنة بالإيمان بأنه لا دافع ولا مانع إلا الله.

والثانى : للخاصة ، وهو ما اقترن بالرضا بقضاء الله ، والصبر على بلائه ، والإخلاص والتقوى والسكون ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[2] ، فاطمأنوا وسكنوا إلى قوله : " مع " فكانت طمأنينتهم ممزوجة برؤية طاعتهم منها .

---

(١) سورة النحل : الآية ١٢٨ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٦ .

والثالث : خاصة الخاصة ، وهو اطمئنان يختلف عن سابقيه ، فأصحابه يعلمون أن قلوبهم لا تقدر أن تطمئن إلى الله أو تسكن معه ، هيبة له وتعظيما ، إذ هو غاية لا تدرك لأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[1] ، و ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2] ، وهم لفنائهم عن أنفسهم مأخوذون بجلال الله وجماله وعظمته ، فشغلهم ذلك عن رؤية أعمالهم ، وعن كل معنى آخر إذ هم لله ولا شئ دونه ، وهم يتيهون فى وادى الحيرة[3] لأنهم مأخوذون بجلال الله وعظمته ، وحالة الحيرة هذه هى التى تؤدى لحال المشاهدة .

ويشير الصوفية إلى أن تحقق الصوفى بالطمأنينة يضفى عليه قوة نفسية ، ويجعل الغير يأنس به ، فيقول سهل بن عبد الله التسترى : " إذا سكن قلب العبد إلى مولاه واطمأن إليه ، قويت حال العبد ، فإذا قويت أنس العبد بكل شئ " .

ويشيرون كذلك إلى أن اطمئنان القلوب يحدث فى مداومة ذكر الله والمعرفة به . وقد سئل الحسن بن على الدامغانى عن قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ ﴾[4] ، فقال إن القلوب هشت من معرفة جلال الله تعالى وعظمته ، وبشت عن معرفة رحمة الله وفضله ، وسكنت من معرفة كفاية الله وصدقه ، واستأنست من معرفة احسان الله ولطفه " .

---

(١) سورة الشورى : الآية ١١ .

(٢) سورة الإخلاص : الآية ٤ .

(٣) الحيرة : الحيرة لها معنى اصطلاحى عند الصوفية ، وهى فى مفهومها الصوفى ما يرد على قلب المتصوف ، حين يتفكر ويتأمل بحيث تحجب تفكره وتأمله ، وقال بعضهم إن من أراد أن يعرف سر الخالق أحرقه نور الربوبية فبقى فى حيرة ، ومن شاء إطلاعا على علم الحق ، أحرقته غلبة هذا العلم فكان حائرا .

(٤) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

وجدير بالذكر أن الصوفية يدخلون فى اعتبارهم أن من أسباب الطمأنينة أن يجد الفرد كفايته فى المجتمع ، فهم لم يكونوا يعيشون فى فراغ ، ولذلك تجد صوفيا كأبى سليمان الدارانى يقول : " النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت " ، وسئل الشبلى عن معنى هذه العبارة ، قال : " إذا عرفت من يقوتها (أى الله) اطمأنت " ، ويقول أبو تراب النخشبى كذلك : " التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر ." .

وقد يعبر بعض الصوفية أيضا عن الطمأنينة أيضا بالفرح ، والفرح الحقيقى عندهم هو شهود الله تعالى فى حركاتهم وسكناتهم ، ورؤيته المنعم الوحيد عليهم ، فأعمال طاعاتهم وعباداتهم ليست إلا فضلا منه ورحمة ، وهذا مشار إليه فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] ، وهذا يقتضى منهم الفرح بما من الله إليهم ، لا الفرح بأعراض الدنيا ، فهذا الفرح الأخير وهم على التحقيق ، لأنه يستجلب بالتدريج هموما لا حصر لها ، وإلى هذا المعنى يشير سهل بن عبد الله التسترى بقوله : " من فرح بغير مفروح به استجلب حزنا لا انقضاء له " .

---

(١) سورة يونس : الآية ٥٨ .

المشاهدة

إن كل ما ذكر من المقامات والأحوال مقدمة للوصول إلى مقام المشاهدة السامى ، والطمأنينة تقتضى المشاهدة ، وهى وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان ، وتتمثل فى مشاهدة الأشياء بأعين الفكر ، وأشرف أحوالها أن تشاهد قلوب العارفين مشاهدة تثبيت فيكونوا حاضرين غائبين وغائبين حاضرين على انفراد الحق فى الغيبة والحضور ، فيشاهدوه ظاهرا وباطنا وآخرا وأولا .

وفى خلال أحوال المشاهدة تعرض للسالك حالات ينبغى وصفها بألفاظ مثل " الاشراق ، والجذبة ، والوجد ، والفناء " ، وتظهر للسالك أحيانا حالة خاصة من الحيرة يسير فيها السالك تائها متحيرا قلقا نحو النور الإلهى ، فيكون مثلا فى حكم مسافر يسير فى الطرق الملتوية والوديان العميقة ويصعد جبلا ويهبط فى واد ، ويجتاز المهاوى والمهالك والسبل المظلمة ثم تتفتح عيناه على أنوار شمس ساطعة . فواضح حينئذ مقدار ما يستولى عليه من الدهشة عندما يفاجئ عينه النور بغتة حتى يضطر إلى أن يغمض عينيه ويخفى وجهه ولكنه يألف النور رويدا رويدا ويستأنس بمشاهدة الجمال الإلهى بعين قلبه .

وقد وصف الله تعالى فى القرآن فى سورة النور : نور السموات والأرض بقوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] . وبديهى أن هذا النور لايشاهد بعين الرأس بل يمكن مشاهدته بعين القلب فقط . والرؤية بعين القلب ، هى أن يرى القلب بنور اليقين تلك الحقيقة المختفية فى عالم الغيب . ويرى المتصوفة أن المقصود من المشكاة فى الآية هو انعكاس نور الله فى قلب المؤمن والصوفى الواصل يكون كل سيره وحياته فى النور .

وهذا نور اليقين الذى يشاهد القلب بواسطته " الله تعالى " وهو شعاع من النور الإلهى يقع فى القلب ، ولولا أن الله يلقى بفضله هذا النور فى قلب المؤمن لكانت رؤيته من المحال ، وكما أنه يمكن رؤية الشمس بواسطة نور الشمس ، كذلك يمكن رؤية الجمال الإلهى ، وتتيسر حال المشاهدة بفيض نور الحق نفسه .

يقول بايزيد البسطامى : " إدعاء العلم الأزلى يصح من شخص يظهر لنفسه نور الذات " . والنور الذى يسطع بقلب الصوفى الواصل يوصله إلى المعرفة ويمنحه قدرة عظيمة فى العلم يعبر عنها بالفراسة فى اصطلاح الصوفية ، ومنشأ الفراسة هو مايقول فيه الله : ﴿ نَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾[2] إذ أن الروح الإنسانية حسب ما يرى غالب الصوفية قديمة ، وهى جذوة من الذات الإلهية .

(١) سورة النور : الآية ٣٥ .

(٢) سورة التحريم : الآية ١٢ .

قال بعض المتصوفة : " إن الفراسة نتيجة العلم والبصيرة ، ولكن العلم نور بصيرة يلقيه الله فى قلوب المخصوصين من عباده ، الأمر الذى يمكن التعبير عنه بالوحى ، ولسان حال هذه الفئة هو " العلم نور يقذفه الله فى قلب من يشاء " ، وكذلك الحديث " اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله " وهناك قصص وحكايت بشأن الفراسة وردت فى كتب الصوفية نذكر منها نماذج هنا .

يقول الشيخ العطار فى تذكرة الأولياء فى شرح حال سهل بن عبد الله التسترى : " أن سهلا كان جالسا يوما فى المسجد اذ سقطت حمامة بتأثير الحر والتعب ، قال سهل : لقد مات شاه الكرمانى ، ولما نظروا إلى الرجل وجدوه كما قال " .

وكتب الشيخ العطار أيضا فى تذكرة الأولياء فى شرح حال الجنيد البغدادى ، قال السرى السقطى له : يجب عليك الوعظ ، فتردد الجنيد و لم يرغب وكان يقول ليس من الأدب الكلام مع وجود الشيخ ، حتى رأى المصطفى S وعلى آله فى لمنام ، يقول له اشتغل بالوعظ فنهض صباحا ليخبر السرى فرآه واقفا على الباب ، فقال : كنت متوقعا أن يقول لك الآخرون تكلم فيجب أن تتكلم ليكون كلامك منجاة للعالم ، انك لم تتكلم بحسب رغبة المريدين ، و لم تجب طلب مشايخ بغداد وطلبت إليك فلم تقل ، والآن ؛إذا أمرك النبى عليه الصلاة والسلام بالكلام وجيب عليك الكلام ، فاستجاب الجنيد واستغفر ، وقال للسرى : كيف علمت أننى رأيت النبى فى المنام ، قال السرى : إنى رأيت الله فى المنام يقول : " إنى بعثت النبى ليقول للجنيد اصعد المنبر وتكلم " .

كان السرى السقطى يقول : " رباه ابتلنى بكل بلاء تراه ، ولكن لا تبتلنى بالحرمان من التمتع بلقائك لأننى أستطيع احتمال كل بلاء وعذاب مع مشاهدة جمالك ولكنى إذا حرمت من مشاهدة جمالك تصير آلاؤك على ثقيلة وأشد عذاب جهنم هو الحرمان من لقائك . وإذا ظهرت فى النار على العاصين فلن يرغب أحد منهم فى دخول الجنة لأن مشاهدة الحق عز اسمه تبهج الروح بحيث لا تحس بشئ من عذاب البدن وبلائه . فليس فى الجنة نعمة أعظم من الرؤية فلو كانت النعمة ومئات أخرى مثلها متوفرة لهم وهم محجوبون عن الله تهلك قلوبهم وتزهق أرواحهم . فالمستحب من الله أن يجعل قلوب الأحياء بصيرة به حتى يستطيعوا تحمل كل المشاق والرياضيات والبلايا ولهذا كان دعاؤهم دائما : " ربنا إننا نفضل كل البلايا على بلاء الحرمان منك فاذا كان جمالك مكشوفا لقلوبنا لم نخش البلايا " .

وخلاصة أقوال المتصوفة فى موضوع المشاهدة هى أننا نرى الله فى كل شئ وأن كل شئ متأثر به ، وآثار الرؤية والمشاهدة ينبغى ان تكون أشد أثرا من التصوف ، ومعنى ذلك أن المتصوف إذا نظر فى أى شئ سواء أبطريق التفكير كان ذلك أم بطريق آخر ينبغى أن يكون فى حال يرى الله فيها بوضوح فى ذلك الشئ ، بل انه يرى الله أكثر وضوحا من ذلك الشئ نفسه .

اليقين

والمشاهدة تقتضى حال اليقين ، فعندما يتمكن السالك فى المشاهدة ويستقر فيها وتصير ملكة له وينحقق فى الفناء ويبقى فى الله ، يبلغ مقام اليقين ، فاليقين بناء على هذا هو أصل جميع الأحوال ومنتهاها ، واليقين هو ارتفاع الشك وليس لزيادته نهاية ، وكلما تفقه المريدون فى الدين ازدادوا يقينا إلى يقين ، ونهاية اليقين تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب . ويرى كبار الصوفية أن اليقين هو آخرالأحوال وباطنها جميعا .

اليقين فى اللغة " يعنى العلم الذى ليس معه شك " ، وهو عند المتصوفة " رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان " ، ويقول أبو نصر السراج فى كتابه اللمع : " اليقين على ثلاثة وجوه .. علم اليقين وهو ما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ما هو عليه ، وعين اليقين ما أعطته المشاهدة والكشف ، وحق اليقين وهو عبارة عن فناء العبد فى الحق والبقاء به علما وشهودا وحالا .

وأهل اليقين على ثلاثة أحوال فالأول الأصاغر وهم المريدون والعموم (وفى رواية أخرى العوام) ، والثانى الأوساط وهم الخصوص ويقينهم هو مرحلة التمكن من اليقين وفى تلك الحال يأنس السالك ويتحقق ويستمر فى اليقين . والثالث الأكابر وهم خصوص الخصوص ويقينهم هو

المرحلة التى قطع فيها السالك كل صلة تربطه بغير الله ولا يكون له مراد سوى الله فلا ينظر ولا يشعر بشئ سواه .

ونذكر هنا أقوال بعض مشايخ الصوفية فى موضوع اليقين ، يقول سهل بن عبد الله التسترى : " أول مقام للمعرفة هو أن يمنح العبد يقينا فى رأسه وتطمئن جوارحه جميعا إلى ذلك اليقين أى أن الخواطر السيئة هى من ضعف اليقين " ، ويقول أيضا : " إن الحق تعالى لم يعط القرب للأفراد بالخيرات و أعطى القرب باليقين " .

ويقول أحمد بن عاصم الأنطاكى : " أقل اليقين هو أنه حينما يصل إلى القلب يملؤه نورا ويطهره من كل شك حتى يتولد فى القلب الشكر والخوف بالنسبة إلى الله ، واليقين هو عرفان عظمة الله كما هو دليل على عظمة الله وقدره والعظمة هى معرفة عظمة الله " ، وقال أيضا : " اليقين نور يقذفه الله فى قلب العبد كى يشاهد به كل أمور الآخرة وتحترق بقوة ذلك النور جميع الحجب التى بينه وبين الآخرة حتى يطالع بذلك النور أمور الآخرة كلها كأنه يشاهده عيانا " .

ويقول عمرو بن عثمان المكى : " أول المشاهدة هى القربى والمعرفة بعلم اليقين وحقائقه " ، و " بداية المشاهدة زوائد اليقين وبداية اليقين نهاية الحقيقة " ، ويقول أبو عثمان الحيرى : " اليقين هى أن يكون القصد والتفكير فى عمل الغد فى الشخص قليلا " .

سألوا محمدا الفضلى : " بماذا تتحقق سلامة الصدور ؟ " فأجاب : " بالوقوف فى حق اليقين وهى حياة يُمنحون بعدها علم اليقين حتى يطالعوا بعلم اليقين عين اليقين وتحصل السلامة ها هنا ، وما لم يكن عين اليقين فى البداية لا يتحقق علم اليقين ، فالذى لم ير الكعبة لا يحصل له علم اليقين

بوجود الكعبة أبدا ، فتبين أن علم اليقين يمكن تحققه بعد عين اليقين ، . وإذا ما ظهر علم اليقين أمكنت مطالعة حقائق وأسرار عين اليقين بعلم اليقين ، ومثال ذلك أن يكون قد سقط أحد فى البئر وكبر فيها وإذا ما خرج فجأة من البئر إلى الشمس فانه يبقى حيران ثم يظل ثابتا على ذلك مدة حتى يتعود طبعه رؤية الشمس بحيث يحصل له العلم بوجود الشمس ويتسنى بذلك العلم له قدرة معرفة أسرار الشمس " .

ويقول الشيخ الكبير أبو عبد الله محمد بن الخفيف : " اليقين هو حقيقة الأسرار بحكم الغيب " ويقول الشبلى " علم اليقين هو ما بلغنا على لسان الأنبياء عليهم السلام وعين اليقين هو أن الله أبلغ إلينا بنور الهداية فى أسرار القلوب من غير واسطة ، وحق اليقين هو الذى ليس إليه من طريق " .

نشأة التصوف عند الأتراك العثمانيين

وننتقل بعد ذلك إلى موضوع آخر وهو نشأة التصوف عند الأتراك العثمانيين . قبل الخوض فى هذا الموضوع ، نرى من الخير أن نمهد للعوامل الممهدة له ، فمن المعلوم أنه فى القرن الثالث عشر الميلادى ، خيم على العالم الإسلامى جو من الحزن والكآبة ، وذلك إثر غزوات المغول الذين عصفوا بالعالم الإسلامى ، فقتلوا ، ودمروا ، وحرقوا ، وقوضوا دعائم الحضارة الإسلامية ، ولم يأمن الناس منهم على نفس ولا مال ، فحتى من لم يغزو المغول ديارهم ، ترامت إليهم تلك النكبات التى حلت بالمسلمين ، فغشيهم الأسى ، وشاه وجه الدنيا فى عينهم ،وهذا مما أدى إلى إنصرافهم عنها ، لأنها دار البوار ، واتجاههم إلى الآخرة وهى دار القرار ، فحبب إليهم أن يفروا بالروح من هذا العالم ، الذى كثر شره ، وقل خيره ، فاتجهوا إلى الزهد والعبادة ، ومعلوم أن التمادى فى العبادة ، وشدة الميل إلى التقوى ، كثيرا ما يفضى إلى التأمل فى الذات الإلهية ، فيدعو إلى التصوف ، أو فى الأقل على تهيؤ النفس لتقبله .

وكان هذا مما لم يستثنى بلاد الأناضول ، فضلا عن أن أهل الأناضول فى هذا العهد ، شهدوا حروبا لا تهدأ ثائرتها ، كما رأوا صراعا ونزاعا بين الأخوة ، وذوى القربى على الملك والرياسة ، مما زاد من تهيؤ النفس لرفض الدنيا ، وإيثار الآخرة لأنها خير وأبقى ، فحفلت أرجاء

الأناضول بشيوخ الصوفية الذين جمعوا حولهم المريدين ، ليسمعوا منهم ويعوا عنهم ، وكثرت التكايا والزوايا .

وكان شيخ الصوفية بلا منازع جلال الدين الرومى ، قد ارتحل عن إيران ، وولى وحهه غربا إلى بلاد الأناضول ، وهناك ألقى عصا الترحال ، وطابت مدينة قونية له مستقرا ومقاما ، وفيها جمع حوله المريدين، ليتلقوا عنه أصول وأحكام طريقته الصوفية ، المعروفة بالطريقة المولوية ، ومعلوم أن جلال الدين الرومى صاحب طريقة خاصة تأخذ بفكرة وحدة الوجود ، وهى إنه لا وجود فى هذا الكون بما وسع ، إلا لكائن واحد هو الله سبحانه وتعالى ، وكل ما فى هذا الكون جزء منه ، أو صورة له ، فالصوفى المولوى على ذكر دائم من هذا ، فمما يقول جلال الدين الرومى ، أن هذا الكون أشبه شئ بالبحر ، والناس أو المخلوقات فيه كالأمواج التى تعلو وتهبط ، إلا أن هذه الأمواج علت ما علت ، وهبطت ما هبطت ، فلن تكون إلا جزءا لا يتجزأ من البحر ، وهذا تشبيه لما يتمثله هذا الشيخ ، صورة لهذا الكون ، وللإنسان على أنه جزء أو ذرة أو صورة من الذات الإلهية .

ولكن لجلال الدين الرومى فضل غير هذا الفضل فى نشر طريقته المولوية ، وهى أكثر الطرق الصوفية انتشارا فى تركيا ، ذلك أن جلال الدين الرومى ، وهو أفصح الفصحاء فى الفارسية ، رأى أن من يتجه إليهم بالخطاب من المريدين ، وجمهرتهم من العوام والأميين ، الذين لا يعرفون إلا تركيتهم الدائرة على ألسنتهم ، هؤلاء يتعذر عليه أن يخاطبهم بلسانه الأفصح ، ولغته التى لا علم لهم بها ، فأضطر أن يهبط من مستواه ، ويجعل وضعه مطابقا للواقع ، فحاول أن ينظم لهم أشعارا بالتركية ، على أن التعبير بالشعر كان وسيلة الصوفية فى شرح مبادئهم ، وأصول تصوفهم ، فكانت

محاولته تلك سببا لنشأة الشعر التركى العثمانى ، وجلال الدين الرومى فى هذه الأشعار ، لم يحاول البلاغة بل أراد أن يعلم القوم مالم يكونوا يعلمون ، فنزعته تعليمية لا أدبية .

ومات جلال الدين الرومى ، فخلفه ابنه سلطان ولد الذى حمل الأمانة عن أبيه ، وخلفه فى مشيخة الطريقة ، وصار فى طريقه ، إلا إنه تقدم عنه خطوات ؛ ذلك أنه نظم كتابا قائما برأسه بعنوان (رباب نامه) ، عقد فيه الأبواب ، ورتب الفصول ، ليشرح تعاليم طريقة أبيه أى الطريقة المولوية ، فهذا الكتاب أو تلك المنظومة ، أول أثر للشعر التركى ، وتوخى سلطان ولد أن ينظم بتركية الأناضول ، التى تدور على ألسنة القوم ، وهم يأخذون بأطراف الحديث بينهم ، لأن الغرض من نظم هذا ، إنما كان الإفادة والتعليم والتوجيه ليس إلا .

وبالنظر فى لغته نرى أنها تكاد تخلو خلوا تاما من الألفاظ العربية والفارسية ، كما سبق أن أسلفنا ذكره من أن السامعين منه ، والآخذين عنه لم يكونوا على علم بالتركية الدارجة ، وأيا ما كان فبفضل جلال الدين الرومى وسلطان ولد شاعت الطريقة المولوية ، وذاعت فى أرجاء الأناضول ، وكانت مدينة قونية هى مركز الدراويش المولوية ، والطريقة المولوية أوسع الطرق الصوفية انتشارا عند الترك .

وحقيق بالذكر أن الدولة العثمانية كانت تجل وتعظم مشايخ هذه الطريقة ، فكانت تعين من تعينه منهم رسميا ، كما جرت العادة فى تتويج السلاطين العثمانيين ، أن يتولى شيخ المولوية تعليق سيف عثمان فى مِنْطَقَة السلطان الذى يراد تتويجه فى مسجد أبى أيوب الأنصارى فى استانبول ، وظل هذا رسما من الرسوم ، وتقليدا من التقاليد ، دام عليه السلاطين فى عصور

التاريخ العثمانى ، ونحن نرى فى هذا أن التصوف كان له كيان مرموق ، وقدر رفيع فى نظر الدولة العثمانية ، إلى جانب ما له من شيوع فى طبقات الشعب على تفاوت أفرادها فى ثقافتهم .

وجملة القول أن هؤلاء المولوية شكلوا مظهرا هاما من مظاهر الحضارة الإسلامية ، والحياة الروحية فى تركيا ، فقد كانوا يستعينون بالرقص والموسيقى على تحريك نشوة الوجد فيهم ، وكانوا فى مدينة قونية يقيمون ما يعرف بالسماع .

والسماع هو إثارة الوجد ، وجذبات العشق الإلهى فى النفس ، بإلقاء السمع إلى النفخ فى الناى ، وقرع الطبول ، ورقص الدراويش ، وكيفية ذلك أن يجتمع المريدون فى يوم خاص من أيام الأسبوع فى مكان يعرف بسماعخانه أى بيت السماع ، وهو بهو متراحب الأرجاء ، فى صدره مجلس للعازفين ، يجلس الشيخ فى صدره ، ويدخل الدراويش بالطويل من قلانسهم ، والضيق من سراويلهم ، فيسلمون على الشيخ ، ثم ينفخ فى الناى وتقرع الطبول ، ويصطف هؤلاء الدراويش فى دائرة يدورون فيها ، ويدور الواحد منهم حول نفسه ، وهو يدور مع رفاقه فى دائرة ، ويرفع الواحد منهم يده اليمنى ، وقد اتجهت راحتها لأعلى ، وراحة يده اليسرى لأسفل ، ثم يدورون فى هذه الرقصة على أطراف أصابعهم دوران الرحى حول قطبها ثم يصلون على النبى S.واضعين أيديهم على صدورهم ، ويحنون قامتهم ، وبذلك تنتهى رقصتهم ..

وفى رأى الصوفية أن السماع وما يفضى إليه من رقص يرقق القلوب وينتزعها من عالم الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوى ، كما يثير الطرب فى النفوس والخوف عند التائبين ، ويضرم نار المشتاقين .

وعندهم أن هذه الرقصة ، رمز لما ذكره جلال الدين الرومى من أن الإنسان فى حركته فى دنياه كالموح فى حركته ، إلا انه لا يخرج من البحر ، وهو الله ، فكأنهم بذلك يرمزون إلى تلك الحقيقة ، كما يثيرون فى أنفسهم لوعة الوجد ، الذى تتحرك نشوتها لديهم ، وهم يلقون السمع إلى صوت الناى ، وقرع الطبل ، فهذا من صنيعهم يجعل لطريقتهم شعبية لا شك فيها ، أنها حركة يشاهدها المشاهدون ، ورمز يجدون مس الحاجة إلى تفسيره .

ومن مستطرف ما يروى عن السلطان سليم العثمانى ، أنه مر باقليم قره مان وعاصمته قونية ، فتعجب من كثرة الأعاصير وقال له أحد رجاله متبسطا إن كل ما فى تلك الأرض من تلال وأحجار يرقص رقصة المولوية .

وكان المولوية يتوارثون مشيخة الطريقة ، مما يقوم دليلا على أن كيانها كان مرموقا قائما بذاته ، ومن المولوية كثير من الشعراء ، ومنهم دراويش أى شعراء من العوام ، وشعرهم شعر شعبى ، لأن الدرويش فى مفهومه هو الصوفى العامى المتجول أو المتسول ، وليس شيخ الطريقة العالم ، فجلال الدين الرومى وسلطان ولد مثلا ليسا من الدراويش ، بل من شيوخ الطريقة .

فنريد أن نقول أن المولوية ينقسمون إلى شيوخ للطريقة ، وهم من حملة العلم والذين يعرفون أصوله وفروعه ، وهم يُقَعِّدون القواعد ، ويؤصلون الأصول ، وينشرون طريقتهم فى الناس على نحو قد يختلف باختلاف من يتجهون إليهم بالخطاب ، كما أن منهم دراويش يتجولون ، ويترنمون بشعر سهل ضحل تتكرر فيه الألفاظ ، وهو بلغة العوام الخالية من التكلف والتعسف ، فهذا ما يجعل للطريقة المولوية ، أو على التحديد يجعل للتصوف هذا الكيان المزدوج .

أثر التصوف فى الأدب التركى

إذا نظرنا فى عموم وشمول إلى التصوف ، وأثره فى الأدب التركى ، نرى أنه لم يؤثر فى طبقة خاصة لا من البلغاء والفصحاء ، ولا من طبقات الشعب ، وحسبنا قولنا إن السلاطين العثمانيين الأوائل كانوا من المتصوفة ، ونضرب المثل بالسلطان عثمان الذى أصهر إلى رجل صوفى ، وإلى السلطان أورخان الذى نقل خطاه حاجى بكتاشى ولى ، ملتمسا منه البركات والدعوات ، ومحمد الفاتح الذى وكَّلَ إلى أحد الصوفية أن يكتشف له قبر أبى أيوب الأنصارى ، فاكتشفه بما يعرف عند الصوفية بالمكاشفة ، وأقام مسجدا على هذا القبر وضريحا ، وجرت العادة بتتويج سلاطين آل عثمان فيه ، أما من كان يتولى تعليق سيف عثمان فى منطقتهم فكان شيخ الطريقة المولوية .

ويؤخذ من هذا كله أن الصوفية ، أو على التحديد فرقة الصوفية المعروفة بالمولوية ، كان لها كيان مرموق رسمى فى الدولة العثمانية ، فكان لها شيوخ فى أرجاء البلاد يُعَيَّنون رسميا من مركزهم الرئيسى فى استانبول ، أما أن يتولى شيخهم تتويج السلطان فيدل على كثير ، فلو أن الشيخ الذى كان يتولى هذا التتويج هو شيخ الإسلام مثلا ، لقلنا أن هذا ليس عجيبا لأن الدولة العثمانية قامت على أساس متين من أصول الشريعة الإسلامية ، أما أن يكون من يتوج السلطان رجلا صوفيا له صفة رسمية فى الدولة ، فإنه يغير

المفهوم المعهود فى النزعة الإسلامية عند الأتراك العثمانيين ، فحقيق بنا أن نعرف أن هذه النزعة لم تكن نزعة إسلامية عامة ، وإنما كانت صوفية خاصة .

ونذكر أن السلطان بايزيد الثانى ، والذى قام النزاع بينه وبين أخيه جم على العرش ، كان يلقب ببايزيد الصوفى ؛ لأنه كان مؤمنا موقنا ولعله كان متصوفا وغلب التصوف عليه .

وهنا نقف وقفة للتفرقة بين التقوى ، والتدين ، والتصوف ، فالتصوف منهج عقلى ، ومذهب روحى ، وموقف يتخذه الصوفى من أوضاع الدنيا حياة له ، ومسلك خاص يسلكه يخالف مسلك المسلمين فى عمومه ، وهنا لا ينبغى الخلط بين التصوف والتدين فالخلفاء الراشدون مثلا كانوا من الصالحين المسلمين بما لايحتمل شكا ولا تأويلا ، ولكن الشأن يختلف عند الأوائل على الخصوص من سلاطين آل عثمان الذين أقاموا كيانا لأعظم دولة إسلامية ، فالخلفاء مثلا كانوا من أهل التقوى ، أما الآخرون فكانوا من أهل التصوف .

ظل هذا التصوف مسيطرا على طوائف الشعب التركى العثمانى على تفاوت حظها من الثقافة ، وهنا نشير إلى كثرة الفرق الصوفية الشعبية بالذات التى كان لها مرموق من كيانها ، وخلق كثير من أتباعها ، وكان لها الفضل فى تشكيل الأدب الشعبى التركى على نحو واسع لم يلتفت إليه الدارسون على ما ينبغى الإلتفات إليه ، فقد كان الأدب الشعبى عندهم أو فى نظرهم ، مقصورا على فنونه التقليدية من الأمثال والقصص والأغانى وكفى إلا أنه كان الأولى بهم أن يلتفتوا إلى الفرق الصوفية التى تشكلت من الدراويش الذين كان لهم الفضل فى نشأة الأدب التركى الشعبى ، ذلك لأن

الأدب الذى عبر عن الروح التركية أوضح وأبلغ ما عبر به عن الأدب الشعبى فى فنونه الأخرى ، فإن الروح التركية فى رأى كثير من الباحثين الأوروبيين خصوصا ، روح تعدم الرقة ولا تميل إلى التخيل والتمثيل ، لأن التركى بطبعه فارس مغوار يغير للنهب والسلب ، وهم يشبهونهم فى أدبهم بجحافلهم فى برارى القارة الآسيوية ، وهم يغيرون للنهب والسلب ، فقالوا إنهم أخذوا من غيرهم كالفرس مثلا كأخذ فرسانهم فى برارى آسيا الأسلاب والغنائم من أعدائهم ، وحقيقة الأمر أن هذا كلام كان لا يثبت على النقد بدليل شيوع وذيوع التصوف فى طبقات الشعب التركى .

وإذا قلنا الشعب فقد تمثلنا قوم لا حظ لهم من علم ، وهم يصدرون عن فطرتهم ، فكأن الفطرة التركية لم تكن تلك الفطرة المجدبة القاحلة التى لا تستجيب للروحانية كروحانية التصوف ، وقد عرفنا ما عرفنا عن يونس أمره فإذا به يتلقن كثيرا من أحكام التصوف سماعا ، دون أن يقلب النظر فى كتاب ، وهو الأمى الذى لا يكتب ولا يحسب ، ولذلك يعتز الأتراك فى يومنا به على أنه المثال الأروع للسليقة التركية الأصيلة التى لم تتأثر إلا بما يدور فى بيئتها . هذا الدرويش المجذوب الهائم الحالم الجوَّال الذى تمضى به خطاه إلى حيث لا يدرى ولا يستقر به مقام ، درويش من البكداشية .

وإذا قلنا البكداشية عرفنا أن لهذه الطريقة مبادئها ، فهى متأثرة بالتشيع وبتيارات مسيحية ، وإذا قلنا هذا فقد عرفنا أن أتباع هذه الطريقة ، أو دراويشها كانوا على شئ من علم ، ولو أنه علم طاف بسمعهم ولم تنظر فى كتبه عيون معظمهم ، ولكنهم فى تأثرهم بهذه التيارات الروحية والفكرية يقيمون الدليل على استعداد الروح الفكرية للتفهم ، وتقبل المعانى المجردة وأهمها المعانى الصوفية ، خصوصا إذا كان هذا التصوف شعبيا لأن الرجل

الأمى منطلق على سجيته ، ليس له من سلطان العقل ما يقتدر به على أن يتخير لنفسه ، فهو يستجيب لسجيته معبرا عن نفسه فى سهولة ويسر ، فتصوفه أو تمثله لأحكام التصوف ولد فى مظهر فج .

وهذا كله من الأدلة القواطع على أن التصوف لم يؤثر فى خلق الشعر عند الترك ليس إلا ، بل أثر فى الروح التركية بعامة ، وفى النظام الاجتماعى عند الترك ، وفى التقاليد التى عملت بها الدولة كتتويج السلاطين وما إلى ذلك من مظاهر ، وقد عرفنا كيف أن سلاطين العثمانيين ، أو بعضا منهم أخذوا بتعاليم التصوف ، وهذا ما لا نجد له نظيرا فى شعب آخر .

إن التصوف لم يظهر عند شعب إسلامى آخر فيما نحسب ؛ ونشير إلى العرب فنقول إن التصوف لم يظهر عندهم إلا فى زمن متأخر هو القرن الثانى ، ولا نعرف له تأثيرا فى المجتمع كتأثير التصوف عند الترك ، ولا علم لنا بأن فرقة صوفية كالمولوية مثلا كان لها فى شعب إسلامى ما كان للمولوية عند الترك ، لقد تأثر أهل مصر بالتصوف الشعبى ، ولكن فى عهد العثمانيين وكان الصوفية من الدراويش وكانت كثرتهم الكاثرة من الغرباء عن مصر فكأن التصوف كان دخيلا ، ولم يكن أصيلا على طبقات الشعب المصرى .

ونحن نعلم فى عهد المماليك أن سلاطين المماليك كانوا يتبارون فى إقامة المساجد والخوانق ، إلا أن إقامة الخوانق لا تدل على صدق نية السلاطين فى نشر التصوف ، لقد أقام الناصر بن قلاوون مثلا فى الخانكة فى محافظة القليوبية مثلا وغيره كذلك ، لكننا لا نعرف للدراويش ما نعرف من أثر فى المجتمع المصرى على النحو الذى نعرفه عند الترك ، وهنا نقف وقفة لا بد منها نرد على بعض المستشرقين الذين ينفون عن الترك كل اتجاه روحى نحو الأفكار المجردة ، فها هو الشعب التركى يقيم البرهان على استعداده

لتقبل التصوف ، وسلاطين العثمانيين لا يشذون عن تلك القاعدة ، فالتصوف ، وفرق الدراويش ، والأدب فى عمومه وشموله متأثر بالتصوف من حيث كان الأدب تعبيرا عن معانى الحياة كان الأدب التركى صادق التعبير عن حياة الترك الروحية ، ولا شك لأنه طوال عصوره القديمة كان معبرا عن تلك النزعة الصوفية ، وتلا الترك من الشعراء تلو أسلافهم من الصوفية فى تعبيرهم حتى ولو لم يكونوا منهم ، وهذا ما جعل للأدب التركى طابعه الذى يميزه عن الآداب الأخرى .

ومعلوم أن الترك آخذون هذا عن الفرس فينبغى أن نصحح الرأى فى شعرهم فقد تأثر شعراء الفرس بالتصوف ، ولكن على نطاق أضيق من النطاق الذى تأثر فيه شعراء الترك بالتصوف ، فالأدب التركى القديم منذ نشأته وهو المدين بنشأته للتصوف ظل صوفيا برمته إلا فيما ندر .

ولم يبق بعد هذا إلا أن نتبين فضل الصوفية على فن القول فى الآداب الإسلامية ، فنقول إن الصوفية كان لهم الفضل فى تضمين متن اللغة ما لا يحصى كثرة من ألفاظ من مصطلحات لم يكن لها من وجود فى معاجم هذه اللغات ، فلهم أثر لغوى ملحوظ كما أن لهم أثرا بلاغيا كبيرا ، وإذا عرضنا لهذا قلنا إن شعراء الترك فى غزلياتهم التزموا تقليدا أدبيا خاصا ، وهو ذكر الحسناء والصهباء والغناء فى وحدة ثلاثية لا انفصال لعنصر من عناصرها بشكل يتكرر تكرارا يكاد يكون مملا .

ولايت كسر واو ايله مشتقدر وليدنكه فتح واو ايله وسكون لامله در قربه ديرلر سيبويه ياننده اسمدر بو دخی ايكی قسم اوزره در بری ولايت عامه وبری ولايت خاصه در ولايت عامه مشتركدر جميع مؤمنلر اورتاسنده قال الله تعالى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ أما ولايت خاصه ارباب سلوكك واصللر ينه مخصوصدر كه اول عبدك حقده فناسندن وحقله بقاسندن عبارتدر اكرچه فناده مرتب چوقدر فناء أفعال وفناء أحوال وفناء صفات وفناء ذات ديرلر وهر فنا دخی كندويه مناسب بر بقايى مستعقبدر لكن فناء كامل أسفار أربعه دن سير إلى اللهك نهايتنه وبقاء حقيقى سير فى اللهك بدايتنه اطلاق اولنور .

ترجمهء عوارفك باب ثالثنك فصل عاشرنده بويله ايراد اولنمشدر كه طبقات مردمك مراتبى على اختلاف درجاتهم اوچ قسم اوزره در قسم اول مرتبهء واصلان وكاملاندر كه اول طبقهء علیادر قسم ثانى مرتبهء سالكان طريق كمالدر كه اول طبقهء وسطادر قسم ثالث وهدهء نقصاندر يعنى ساكنان منازل ناقصه در اول طبقهء سفلادر واصللر ومقربلر وسابقلردر كه (والسابقون السابقون اولئك المقربون) وسالكلر ابرار واصحاب يميندر ومقيملر اشرار واصحاب شمالدر واصحاب وصول انبيادنصكره صلوات لله تعالى عليهم ايكى طائفه در اول مشايخ صوفيه در كه حضرت رسول صلى الله عليه وسلمه كمال متابعتلرى واسطه سيله مرتبهء وصول بولمشدر .

ترجمهء عوارفك اولكى بابنك ايكنجى فصلنده ايراد اولنمشدر كه توحيدك مراتبى واردر اول توجيد ايمانى ايكنجى توحبد علمى اوچنجى

توحيد حالى دردنجى توحيد الهى اما توحيد ايمانى اولدر كه بنده وصف الهينك تفرد ينه وحق سبحانه وتعالينك معبوديته استحقاقنك توحيد ينه آيات واخبار اشارتيله گوكيله تصديق ايليه زبانيله اقرار ايليه وبو توحيد مخبر صادقى تصديق ايتمك نتيجه سيدر .

حاجى بيرام انقروى

اصلده صول فصل نام قريه دندر كه انقره شهرينه قريبدر چبق صوينده اوزرنده در اوائلده خيلى زمان مدرسلك ايتمشدر صكره شيخ حامدك شرف صحبت وسعادت خدمتلريله تحصيل طريقت وتكميل حقيقت ايلمشدر وزماننده قدوهء انام ومرجع خاص وعام اولمشدر كرامات عينيه ومعنويه سى ايدى چوق كيمسه ولايته ايرشدرمشدر اينجه بدر الدين وقزلجه بدر الدين وصلاح الدين مولوى وعمر دده البروسوى كبى قدس الله تعالى سرهم حاجى بيرام صحبت ايتدى .

آق شمس الدين بن حمزه

آدى محمد در ولقبى آق شيخدر ومولدى دمشقدر وشيخ شهاب الدين سهروردينك نسلندندر حضرت شيخ شهاب الدينك نسبى حضرت امير المؤمنين ابو بكر الصديقه رضى الله تعالى عنه ايريشور حضرت ابوبكر الصديقك رضى الله تعالى عنه درت اوغلى وار ايدى نصر الله وعبد الله

ومحمد وجعفر رضى الله تعالى عنهم نصر الله مولانا جلال الدين رومينك جد اعلاسيدر وعبد الله شفيق بلخينك جد اعلاسيدر ومحمد شيخ نجيب الدين سهروردينك جد اعلاسيدر دردنجى اوغليكه جعفردر كفار النده شهيد اولدى .

اوائلده تحصيل علوم ظاهريه يه مشغول اولوب عثمانجقده مدرس اولمشدر آل عثماندن سلطان بايزيد بن محمد خانه قاضى عسكر اولان امام على افندى شويله نقل ايتديلر كه بنم بابام حاجى بيرامك مريدى ايدى ودائما اق شمس الدينله بولوشور ايدى آق شمس حضرلرى مدرسه يى ترك ايدوب ديار عربه متوجه اولدى وحلبه واروب ومذكور امام على حضرتلرينك بابالرينه بولوشوب حاجى بيرام خدمتده متوجه اولمشلر .

رابعه عدويه

بصره اهلندن ايدى سفيان ثورى اندن مسائل صورر ايدى واكا وارر ايدى وانك دعاسنه رغبت گوسترر ايدى بر گون سفيان اكا واردى والين قالديروب ايتدى (اللهم انى اسألك السلامه) رابعه آغلدى سفيان صورديكه سنى آغلدن ندر ايتدى سن بنى آغلتدك سفيان ايتدى نيجه ايتدى بيلمزميسنكه دنيا دن سلامت آنى ترك ايتمك ايله اولورسك آنك ايله الوده سين رابعه ديمشدر كه هرنسنه نك بر ثمره سى اولور معرفتك ثمره سى حق تعالى يه متوجه اولمقدر وينه اول ديمشدر كه (استغفر الله من قلة صدقى استغفر الله) .

içinde Bozkır kazasında kâin Ali Çerçi adlı köyden yetişip Konya ve Kayseri ve İstanbul'da ilimler okuduktan ve Ebu Sa'id Hadimi'nin çıraklarından Şeyh İbrahim efendiden sülûki tamamladıktan sonra Ödemiş'li şeyh Hasan Kudsî efendinin kılâvuzluğu Dımışk Şam'a Kuds-ü şerife gidip Cenab-ı mevlâna Hâlid ile sohbet ederek feyz alıp icazet almış olan Hoca Memiş Ef.Mehmed Kudsî adiyle meşhur olarak Halidiyye tarikatini yaymayı başarıp 1269 H. Yılında Seyidi Şehir'ine beş saat uzaklıkta olan Çavuş köyünde bezm-i a'la'ya ulaşdığı gibi ; aslen Vidin halkından olup Osmanl ordusunda bazı önemli hizmetlerde bulunduktan sonra memuriyyet isteklerini terk ederek Konya'ya gidip bu zata derviş olmuş olan Hacı Feyzullah efendiyi ma'nevi memuriyet ile İstanbul'a gönderdiğinden bu zatın herkesi irşad edici olan eserleri cümlemizin meşhudu olmakla kendisine inabet ve kudsî teveccühlerine mazhariyyet ile faydalanılır idi .

Bu zat 1293 tarihinde vefat edip Halıcı larda Kâin dergâhında gömülüdür .

Nakşibendiler önceleri kalben ve gizli zikreder iken sonraları açık olarak " cehren " zikretmeğe başladıklarından Halidi'ler ilk kurulduğu gibi kalben ve gizli zikrederek Nakşibendiler ile aralarında bu suretle fark hâsıl olması dolayısiyle kendileri de Nakşibendî olduğu halde Halidi'lik şöhret bulmuşlardır .

terakkiler ettiler , rahata ve anılmaya mazhar oldular . Ve letaif-i emrin islâh etmesiyle fena fil-lah ve bekâ bil'-llah ve vücüdun mahviyetinde üstün geldiler . Yaradılış âleminin lâtıf nurları seyrini , keyfiyyetlerini , suallerini vicdanî hey'et üzre Hz. İmam Rabbanî tarikinde salik olarak vücûdu dopdolu oldu . Ve batınlarını ışıklı ve keyifli kıldı . Tarikat olgunluğu ile onları tekmil etti .

Pes onları icazet ve hilâfet ile taliplerin terbiyesinde mümtaz kıldım . Ve Kadiriye , Çeştiye , Sühreverdiye . Külberviye'nin tarikatlerinde dahi , mücaz kıldım , Öyle ki : bu tarikatte işlenmiş olan şeylerde onların eli benim elimdir . Ve onlar benim sadakatle damgalanmış pirlerimin halef ve vekilidir . Rızası benim rızamdır . Hilâfi benim hilâfımdır . Zikir ve tevhid ve murakebelere devam ve yüksek sünnetlerime uyma ve sonradan dinde çıkan şeylerde sakınmak ve sabır ve tevekkül ve teslim ve Tanrının rızasına sarılarak tefsir ve hadis ilimleri sofiyye ve tarikat isteklilerin başlangıçları ile meşgul olanlar . Ulu Tanrıdan kendim ve sizin için afiyetin devamını ricâ ve niyaz ederim ".

Mevlânâ Halid Dehli'den Irak'a dönerek bir müddet Süleymaniye ve Kerkük ve Bağdat'ta ve sonradan yerleşdikleri Dımışk Şam'da tarikatinin feyzini yaymakta iken 1242 yılı şevvalinin yirmi altıncı çarşamba günü taun illetinden vefat etmiştir .

Âlimler ve fazılların zahidlerinden pek çok zevat bu zattan faydalanarak hakikati yaydıklarından seksen yılı geçkindir ki Kürdistan ve Şam ahalisinin çoğu Halidiyye tarikatına sülûk ettilrer . Ve diğer memleketlere dahi yayıldı bu cümleden Konya vilâyeti

HALİDİ NAKŞİBENDİLER TARİKATİ

Mevlana Hâlid neseben Osman Zin-nureyn ve haseben Ali Al-Mürtaza'ya mensup olup 1192 tarihinde Süleymaniye sancağına bağlı Karadağ kasabasında dünyaya gelmiştir .

Süleymaniye şehrinde Şeyh Seyyid Abdülkerim Berzenci ve Dımışk Şam'da Şeyh Muhammed Al küzberi gibi şöhretli müfessir ve mühaddislerden okuyarak zamanının en bilgilisi olup din bilgisi okutmak , şiir söylemek ve eser yazmakla senelerce meşgul oldu .

Bu sıralarda tarikat erbabı ile dahi sohbetler ederek Dımışk'ta Şeyh Mustafa Kürdi Al-Kadirî'den Kadirî tarikatında hilâfet aldıktan sonra o tarihde Dehli şehrinde parlayan tarikat-i âliyyenin nurlu güneşi , ve Nakşibendiye hacegânın en yükseği Abdullah Dehlevî hazretlerinin nezdine giderek kudsî teveccühleriyle kasd ettiği yere ulaşarak ma'nevi feyzlerini yaymakla Halidi Nakşibendi tarikatını kurmaya muvaffak oldu .

Abdullah Dehlevi Hz.leri tarafından verilen :

" Hamd ve salattan sonra fakir Abdullah Nakşibendi müceddidi bu veçhile beyan eder ki din âlimlerinin başta geleni , ve hakka yakin taliplerin eşi olmayasn Hz. Mevlânâ Halid Nakşibendî tarikati için Kürdistan'dan bu fakirin yanına geldi . On ay halvet edip , alışmış olduğu şeyleri terk ve tam bir gayretle çalışıp çapalayarak zikr-ul-laha devam ederek yüreğini süsledi . El-Hamd-ü-lillah , Allah-ü sübhanehu ve teâlânın yardımı ve pirlerin vasıtasiyle tarikat yollarında

Mevlevî tarikatinin usul ve âdabı Cenab-ı Pir'e halef olan Husam ed-din Çelebi ile , oğlu Sultan Veled ve sair dedelerin büyükleri tarafından tanzim edilmiş ve sıraya konulmuş olmakla gözle görülen ve herkesçe bilinen sema' ve deveran o yolda cereyan etmektedir .

BEKTAŞİYYE TARİKATİ

Hacı Bektaş-ı Veli Kâzımiye Seyyitlerinden Seyyid Mehmed Efendidir . Horasan'da Nişabur şehrinde doğarak Nakşibendiyye Seyyitlerinden Hoca Ahmed Yesevi Hz. ile Halifelerinden şeyh Lokman adındaki zattan feyz aldıktan sonra göç ederk Kırşehir sancağı içinde kâin Hacı Bektaş köyünde halveti uygun görüp sükûnet ve sessizlik yerine çekilmesi bu ad ile şöhretine sebep olmuştur .

Hacı Bektaş-I Veli Yeniçeri ocağının kuruluşunda himmet ve dua ettğinden bütün Yeniçeriler ona mensup idiler . Zaman geçtikçe Yeniçeriler itaat ve intizam dairesinden çıktıkları gibi Bektaşiler arasına dahi Râfizî'ler girmiş olduklarından 1241 yılında Yeniçeri ocağının kaldırılması üzerine Pirin çıktığı yer olan Nişabur şehri , Nakşibendî hacelerinin irfan nuruna kavuştukları evliya burcunda vakî olmasından dolayı Bektaşi tekyelerine Nakşibendî şeyhlerinden uygun olanları tâyin kılınmıştr .

MEVLEVİYYE TARİKATİ

Neseben Hz. Ebu Bekr as-Siddîk ve hseben Kerbelâ şehidlerinin baş tutanın sülâlesinden Mevlânâ Celâl-ed-din 604 H. yılında rebi-ul-evvel ayının altıncı günün “ Belh “ şehrinde fana âlemini vücüdiyle tezyin eyledi .

Babası âlimlerin sultanı Mevlânâ Beha-üd-din dini ilimler okuyup , pek çok taliplere şerî hüküm ileri okutmuş ve öğretmiştir . Ve yine babasının halifelerinden Seyyid Burhan-ed-din Muhakkik Tırmizî’den , tarikat sülûkünü tamamlıyarak icazet aldı . Sofiyye büyüklerinden Ferid ad-din Attâr ve sair bâzı zevat ile buluşup , nihayet zamanın kutbu şeyh Rükn ed-din Sicistanî’nin işaretiyle gelen Şems ed-din Tebrizi ile âriflere yakışır şekilde sohbet ederek tevhid ilminin sonsuz denizlerine dalıp âşıkların sultanı oldu .

672 H Yılı cemadi al-ahiresinin beşinci günü , cihanın mavi renkli kubbesine , ney sadası gibi , bir hoş sada bırakarak bu bekasız sema’hanede deveranını tamamlayarak geldiği yere dönüp gitti .

Babasıyla birlikte Konya’ya göç ederek orada yerleşmiş ve o şehirden feyzlerini yaymaları ve en son orada ölmüş bulunmaları “ Mollay-ı rum “ şöhretiyle iştiharına sebep olmuştur .

Hz. Mevlanâ mesnevisinin ve divanın havi olduğu yetmiş , seksen bin ve belki daha ziyade beyitten her biri büyüklüğünün kemaline delildir .

Hacı Bayram Veli'ye bütün Anadolu halkı gönül bağlanmış olup zamanında fukrası çoğalmış ve Fatih sultan Mehmed Han ile birlikte bulunarak İstabul'un fethinde himmeti vakî olan Ak Şems-ed-din ile Emir Sikkinî ve Kitab-ı Muhameddiye nazımı Yazıcı zade Mehmed effendi gibi şöhretli halefleri yetişmiş olduğu gibi ölümünden sonra dahi tarikatine mensup bir çok zevat kerametleriyle meşhur olmuştur .

Hacı Bayram-ı Veli 833 H. yılında Ankara'da ölüp kabirleri âşıkların ziyaret yeri ve mescitleri zikr edenlerin dergâhıdır . Ve Anadolu şehirlerinin çoğundan bu tarikate mahsus tekyeler vardır .

BAYRAMİYYE TARİKATİ

Hicri dokuzuncu yüzyıl ricalindan zamanın kutbu ve insanların uyduğu Hacı Bayram-ı Velî Anakra şehri yakınından kâin " solfasıl " adlı köyde doğmuş ve ilim ve irfan tahsil ederek tarikat pîri olmakla muhterem olmuştur .

Bu zat Bursa'da tedris meşgul iken aslen Kayseri'li olup Anadolu'da ve Şam'da okuduktan sonar Tebriz şehri yakınında kâin Hoy kasabasına giderek şeyh Ala-ad-din Erdebili'den feyz alıp olgunlaştıktan sonra Bursa'ya gelmiş olan Hamid–üd-din Ebû Hamit Hz.leri ile musahabet ve birlikte Şam ve Hicaz'a gitmiş ve Hz. Ebu Hamit , Knoya vilâyeti içinde kâin Aksaray Kasabsında yerleşmiş olduğundan ölümüne kadar ona hizmet etmiştir .

Ebû Hamit Aksatrayî , Alâ-ed-din Erdebili'den ve o da sırasıyla Sadr-ad-din Erdebili , İbrahim Zahid Gilânî ,Cemâl ad-din Tebrizi Rükn ad-din Sicistanî , Kutb-ad-din Ebheri'den ilim ve irfan kazanmışlardır .

Sühreverdi'nin tarikat silsilesi Cüneyd Bağdadî'ye bağlanır . ve Şems-ad-din Tebrizi , Rükn-ad-din Sicistani tarafından terbiye edilmiş olmakla diğer tarikatlerin çoğu Sühreverdi'den şubelenmekle cümlesi bir babanın çocukları gibi olup Bayramî'ler ile Mevlevî'ler ve diğer bütün Alevî'ler aslında yekdiğerinin tarikat kardeşidir .

Hz. Rifa'î buyurur idi ki tarikatine bida't karışmamış dindir . Ve usanmadan , bıkmadan ameldir . Tarikatımız beş duyguyu zapt ve hıfz etmektir .Ve nefes aldıkça vaktta riyâyet eylemektir . Ve içyüzünü temiz kılmaktır . Ve bütün duygular ile Tanrı'nın zikrine devam etmektir . Masivâ ile meşgul olmayan kalb ve şehvetlere boyun eğmeyen nefis sahibi olmaktır . Tariktimiz , indirilmiş kitap ve gönderilimiş nebi'nin sünnetidir . Derviş sünnete uygun yolda gittikçe tarikatdedir , doğru yoldan çıktığı anda bâtılı kabullenmiş demektir .

KADİRİYYE TARİKATİ

Neseben Hasan Mucteba ve heseben şehid-i Kerbelâ 'nın temiz sülâlesinden Abdul Kadır Al-Cilaâni "Gilanî " " Ciyli " adlı köyde 471 H. de doğmuş 561 tarihinde Bağdat'ta ölmüş olup türbeleri halkın ziyaret yeri ve yüce dergâhları fakir zengin herkesin sığındığı yerdir .

Irak , Kürdistan , Hindistan halkının büyük bir kısmı Kadiriyye tarikatine sâlik irfan arbabıdır . İslâmiyetin yayıldığı diğer kıt'alarda da pek çok Kadirî dergahı bulunduğundan ruhanî feyzleri herkese " rayegân = zahmtsiz ele geçen " dır .

Seyyid Ahmed Ar-Rrifaî " Şeyh Abd al – Kadir'in sağında şeri'at ve solunda tarikat denizi olup hangisinden ister ise gizlemeyip söyler asrımızda kedisine eş yoktur " sözü ile olgunluğunu bildirmiştir .

RİFÂİYYE TARİKATİ

Nasebi sahih Seyyid , hasebi celil , büyük kutbu ve en yüce gavs , Abu'l-alemeyn = iki âlemin babası Ahmed Ar -Rifa'î Al Huseyni Al-Kebir Hz.leri 512 H.yılında Arz-ı Betayih'da " umm-u Ubeyde " mevkiinde doğmuş ve 578 tarihinde yine orada ölmüşlerdir , yüce kabirleri herkesin ziyaret yeridir . Beni Rifa'a kabilesine mensup bulunmaları " Rifâî " diye şöhret bulmasına sebep olmuştur .

Hz. Rifa'î va'az kürsüsüne çıktığı vakit etrafını âlimlerin büyükleri ve fazılların ileri gelenleri alır , ve va'azlarını dinlemek üzere fen ve ilim arbabından birçok kimse her tarafdan koşuşur , söze başladığı gibi herkese hayret gelir , inkâr edenler şaşkın ve mütekellimin dilsiz olur , sülûk sahabı vecd ve raksa gelir , huşu' ehli ağlar , temkinli kimseler bile elde olmadan unutulurlar idi .

Zât-i ârifâneleri vâris olduğu , lâfızları az mânaları doğru ve sağlam olan sözlerle , va'âzlarını dinleyen cema'atin kabiliyetine göre her fenden bahs edip sözlerin berraklığından edibler , edebi anlamlarından belâgat sahipleri maarifinden ilim adamları , tahkikatından hakimler , açık ifadesinden kelâm erbabı , hakayıkından evliya faydalanır ve feyz alırlardı .

BEDEVİYYE TARİKATİ

Evliya-ul-lah'ın şöhretlilerinden Ahmed Bedevi , sülale-i tahireden olup 590. H. tarihinde Fas'ta dünyaya gelmiştir . Babası ile birlikte yedi yaşında iken Mekk-i mükerremeye gelip ibâdât ile iştigal etmiş ve yıllarca kimseyele konuşmayıp dilini zikr-ul-lah'a hasr ve tahsis eylemiş ve halktan çekindiği gibi yüzünü bile halka göstermeyip , inzivagâhından çıksa yüzüne peçe örtüp saklanmış ve zikir ve daimî vecd ile bu geçitten geçip 675 H. tarihinde ölmüş olmakla " Tanta " da toprağa verilmiştir .

Hz. Bedevî , Mısır ile Afrika'nın sair cihetlerinde feyzlerini yayarak halkın hemen hepsi , hayatında iken kendilerine elden gelen saygı ve sevgiyi gösterdikleri gibi bugün dahi olağanüstü hürmette bulunduklarından " Tanta " da kurulu dergâhı mamur ve ziyaretçisi bol ve diğer şehirlerde de Bedevî tekeyeleri bulunmakla ma'nevi feyzleri İslâm âleminin her cihetini kaplamıştır .

ŞAZİLİYYE TARİKATİ

İlâhî sırların rumuzuna vâkıf , sofiyyenin hucceti , zamanın kutbu ayân ehlinin bayrağını taşıyan Abu'l Hasan Ali Aş-şazilî Afrika'da kâin " Şâzil " köyünde doğup İskenderiye'de okumuş Necm Ad-din İsfahanî ve İbn Meşiş ve Tac ad-din b. Atâ ul-ah gibi zevat ile sohbet ederek ilim ve irfan kazanmış , olgunlaşmış bir zattir . 656 H. Yılı zilkadesinde Hac yolunda vaki " Ayzah Sahrası "nda ölmüştür . Tanrının geniş rahmeti onun üzerine olsun .

Afrika halkından pek çok kimse Şaziliyye tarikatine mensup olduğu gibi , İstanbulda dahi Şazilî dergâhı vardır .

HALVETİYYE TARİKATİ VE ŞUBELERİ

İbrahim Zahid Giylânî'den yukarida zikr olunduğu üzere Bayramiyye tarikati şubelere ayrıldığı gibi Halvetiyye dahî bir takım şubelere ayrılmıştır . Şöyle ki : Bu zattan sonra sırasiyle Ahî Mehmed Halvetî, Hacı İzzeddin Halveti , Sadreddin Hayyâvî Seyyid Yahyay-ı Şirvani feyz bulmuşlardır .

Yahyay-ı Şirvanî'yi Şeyh Ömer Ruşenî , Mevlânâ Alâeddin Rûmî , Şeyh Pirî , Pir mehmed Erzincanî yerine geçmiş , bunlardan dahi pek çok halifeler yüce mertebelere ulaşarak Halvetiyye tarikati ve şûbeleri ziyadesiyle çeşitlenmiş ve çoğalmış ve Halvetiyye şeyhlerinden büyüklerin çoğunun tekyeleri kendi adlarıyla anılmıştır .

MELÂMİYYE TARİKATİ

Hacı Baram-ı Veli'nin halifelerinden Ak Şemsed-din hazretleri Cenab-ı Pir'in kendisine tac ve hırka ve tesbih ve seccade ve asasını heddiye etmiş olması makamına geçmeğe delil olduğunu beyan ve iddia eylemesi üzerine Hac-ı Bayram-ı Veli 'nin halifelerinden Emir Sikkinî hazretleri " Önem tac ve hırka ve tesbih ve seccade ve asa'da olmayıp temizlenmiş kalbdedir " diyerek derviş kıyafetinden sıyrılarak halkın giydiğini ihtiyar ve kalbi masivdan boşaltarak tecellileri gözlemek , ve şarap içmenin sınırı gibi şer'î hududun , tarikat arkadaşları arasında bile icrasiyle şer'î şeref hükümlerine uymayı esas kabul ederek Bayramiyye tarikatinin bir şubesi olmak üzere " Melâmiyye tarikati " ni ihdas eyledi . Ve tarikatte Bünyamin Ayaşî , Pir Ali Sultan Asarâyî , İdris Muhtefi denilen Ali b. gibi zevat yetişti . Bunların resmi tekyeleri olmayıp usul ve âyinleri dahi gizli olarak icra kılınır .

Teessüfe şayandırki Melâmiler içine Emir sikkinî Hz.lerinin ölümünden yüz yıl sonra şah sevenler girerek " Hamzevî " adiyle anıldıklarından haklarında devletçe şiddetli muameleler edilip tarikatin mülhidlerden temizlenmesine çalışılmıştır .

TEVEKKÜL

Tevekkül ; ulu Tanrı'ya güvenüp , sebepleri kaldırarak , işleri birine bırakmaktır .

Binaenaleyh mütevekkil olan kimse , masiva ile ilgilerden nefesini tecrid ederek , gözünde dünya isteği ve ona benzer şeyler tamamen yokluğa yakın olup Tanrı'ya zahiren ve batınen boyun eğmek ve sebepleri terk ile her şeyi Allahtan bilip beklemek ve gelirlere şükür ve müsibetlere sabr eylemek lâzımdır . Peygamberler ve büyük elçiler , " Resül " efendilerimiz hazretinin hepsi bu ulu sıfat ile sıfatlanmış ve hakkın lûtfuna mazhardırlar .

SÜLÛK ERBABI

Sülûk erbabı iki kısım olup birincisi : cezbe ve sülûk arasını toplayıp renkleşmekten kurtararak ağırbaşlılık makamını sığınacak yer olarak seçen ehl-u-llahdır .

İkincisi : Henüz orta yürüyüşte olan , telvin ehlidir . İkinci kısımdan olanlar dâvet makamına lâyık olmadığından bahsimiz birinci kısımdan bulunanlara dairdir . Onlarda salik olan meczub , meczub olan salik , meczub olmayan salik , salik olmayan meczubdur .

Meczub olan salik ; hak yoluna sülûk ile rahmani cezbelere nail olanlardır . Bunların sülûkü cezbeye ve fenası bekadan önce olmakla olgun bir mürşidin irşadiyle makamlarda yükselerek Tanrıya ulaşmış olup .

المصطلحات

Alevî’ler العلويون
Âlim عالم
ârif العارف ، المتصوف
aşk العشق
bida’tبدعة
boyun eğmek الخضوع
Brahmanizm البراهمانية
Buda بوذا
Budist بوذى
Budizm البوذية
büyük elçiler الرسل
büzülme القبض
cezbe جذبة
dergâh خانقاه
dergâh تكية
derviş درويش
ehl-u-llah أهل الله
fakir فقير
fakr الفقر
fazıl فاضل
fena الفناء
fena fil-lah الفناء فى الله
feyz الفيض
gevşeme البسط
hadis الحديث الشريف
hak yolu طريق الله
hal الحال
halvet الخلوة
hırka الخرقة
hoşnudluk الرضا
icazet الإجازة ، الإذن
inabet الإنابة
irfan العرفان ، التصوف
irşad الإرشاد
İslâm الإسلام
Katolik كاثوليك
kılâvuz مرشد ، دليل
kılâvuzluk الإرشاد
kuruntu الوهم
Maniheizm المانوية
Mazdekizm المزدكية
Mecûsîlik المجوسية

meczub مجذوب
Mevlevî مولوى
muhabbet المحبة
murakebe المراقبة
mürşid مرشد
mütevekkil متوكل
Nakşibendiler النقشبندية
Nasturilik المذهب النسطورى
nefes نفس
niyaz التضرع
Ortodoks أرثوذكس
öfke الغضب
peygamber نبى
pîr شيخ
renkleşmek
resul رسول
rıza رضاء
ricâ رجاء
sabir الصبر
sabr eylemek أن يصبر
salik سالك
sema'hane سماعخانه
sema' السماع
sezme الظن
sofiyye الصوفية
sufi المتصوف
sülûk السلوك
sülûk erbabı أرباب السلوك
sülûk etmek أن يسلك
sünnet السنة
şüphe الشك
Tanrı الله تعالى
tarikat طريقة
tarikat erbabı أرباب الطريقة
tasavvuf التصوف
tecrid etmek أن يتجرد
tefsir تفسير
tekye تكية
teslim التسليم
tevekkül التوكل
tevhid التوحيد
veli ولى
yakin اليقين
Yakubilik المذهب اليعقوبى (اليعاقبة)
yokluk العدم
zahid زاهد
Zerdüştlük الزرداشتية
Zerdüşt زردشت

المراجع

المراجع العربية

١. أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين القاهرة ١٢٣٤ هـ

٢. أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية القاهرة ١٩٥٣

٣. د. أبو العلا عفيفى التصوف القوة الروحية فى الإسلام
القاهرة ١٩٦٣

٤. أبو نصر السراج الطوسى : اللمع القاهرة ١٩٦٠

٥. د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى
القاهرة ١٩٧٤

٦. د. حسين مجيب المصرى : المولد الشريف القاهرة ١٩٨١

٧. د. حسين مجيب المصرى : فى السماء القاهرة ١٩٧٣

٨. د. زكى مبارك : التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق بيروت
١٩٧٣

٩. السهروردى : عوارف المعارف القاهرة ١٣٣٤هـ

١٠. د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف المنقذ من الضلالالقاهرة
١٩٨١

١١. د. قاسم غنى : تاريخ التصوف الاسلامى القاهرة ١٩٧٠

١٢. القشيرى : الرسالة القشيرية القاهرة ١٣٦٧ هـ

١٣. الهجويرى : كشف المحجوب - ترجمة د. اسعاد عبد الهادى قنديل القاهرة ١٩١١

المراجع التركية

١- لامعى : نفحات الأنس من حضرات القدس لجامى – الترجمة التركية استانبول ١٩٨٠ .

2- Hacı Reşid Paşa : Tarikatler Silsilesi İstanbul 1985

3- Dr. İrfan Gündüz : Osmanlılarda Devlet –Tekke Münasebetleri İstanbul 1985

4- M. Nuri Şemsüddin Nakşbend : Nakşibendiye Tarikatinin Murakebe Risalesi İstanbul 1974

٧

الموضوع **صفحة**
